عود کبریت

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ-٢٠١٨م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

اسم الكتاب	: عود كبريت
اسم المؤلف	: مجدي محروس
الغلاف	: محمد ضوهـ
التصحيح اللغوي	: خالد رجب عواد
الطبعة	: الأولى
رقم الإيداع	: ٢٠١٧/٢١٤٥٣
الترقيم الدولي	: ٩٧٨-٩٧٧-٧٨٦-١١٥-١

٨ عمارات الواحة – قطعة ١٠ – مدينة نصر - القاهرة
ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠
ghorabpublishing@hotmial.com

رواية

عود كبريت

مجدي محروس

دار غراب للنشر والتوزيع

(١)

في ذلك المقهى البلدي الشهير بحي باب الخلق أحد أشهر أحياء وسط البلد، تناثَرَ عددٌ قليل من الزبائن في ذلك الوقت من الصباح... علي باب المقهى جلس عم "الشامي" المسئول عن الجراج المقابل للمقهى، وراح يمسحُ عرقه بمنشفةٍ صفراء كانت بيده، وعيناه تدوران مع كل سيارة تدخل الشارع أو تخرج منه، مَدَّ يده وأخرج من جلبابه لفافة بها سندويتش فول راح يتناوله في نَهَمٍ في اللحظة نفسها التي يصل فيها المعلم "توفيق" صاحب المقهى بجسده الضخم عائدًا من بيته، وحين تقع عيناه علي "الشامي" جالسًا على باب المقهى في الصباح تنقلب ملامحه، ويُردِّدُ بينه وبين نفسه بصوته الجهوري الغاضب:

- يا فتاح يا عليم!

ينهض "الشامي" من مكانه قائلًا بتلعثم، والطعام في فمه:

- صباح الخير يا معلم.

لا يرد عليه المعلم "توفيق" وهو يتجه بجسده الضخم نحو مكتبه الكائن بصدر المقهى، ويُلقي حقيبته - التي لا تفارق يده - فوق مكتبه، وهو يُهمهِمُ بعبارات غير مفهومة قد اعتادها عمال المقهى، وقد أخذَ كلٌّ منهم يبحث لنفسه عن عمل يتلهَّى به عن ثورة صاحب المقهى وغضبه على الرغم من أن عدد العمال كان أكثر من عدد الزبائن في ذلك الوقت من الصباح، والعمال أنفسهم قد اعتادوا غضب المعلم وثورته مع كل صباح، بل إن أصحاب المحلات المجاورة، وسكان الشارع قد اعتادوا ذلك أيضًا، بل إن بعضهم كان ينتظر وصول المعلم كل صباح؛ ليستمتعوا بذلك الموشح اليومي ويضحكوا في سِرِّهم..

ظَلَّ لما يقرب من نصف ساعة، وهو يُراجع حسابات المقهى وكل لحظة وأخرى يهز رأسه ويُحرِّكُ شفتيه بهمهماتٍ تنمُّ عن عدم الرضا..

- صباح الخير يا معلم.

يلقي تلك التحية "عزمي حافظ" صاحب معرض الدراجات المجاور للمقهى وقد ارتدى حُلة أنيقة متناسقة مع شعره المصبوغ والسلسلة الذهبية التي تتأرجح من رقبته مما منحه عُمرًا أصغر من عمره الحقيقي بربع القرن على الأقل..

تطلَّع إليه المعلم "توفيق" من تحت نظارته وقال له:

- أهلًا...

يبتسم "عزمي" ابتسامة تنمُّ عن اعتياده مثل ذلك الردِّ، وجلس على مقعد مُقابلٍ "للشامي" الذي ينهض من مكانه وهو يتَّجه صوب سيارة تبحث عن مكانٍ قائلًا وهو يُلوِّحُ بالمنشفة الصفراء:

- اتفضل يا باشا... اتفضل.

"عزمي حافظ" يضع ساقًا على أخرى وهو يهتف بـ "زيزو" صبي المقهى قائلًا:

- الشاي المخصوص يا "زيزو".

يتطلع إليه "زيزو" لحظةً ثم يهتف بلهجة تنمُّ عن عدم الارتياح:

- شاي مخصوص للـ.. باشا.

يشعل "عزمي حافظ" إحدى سجائره في اللحظة نفسها التي يدخل فيها المقهى ثلاثة من الشباب أعمارهم تقاربت من الثلاثين، ويجلسون في أحد أركان المقهى.. يهتف أحدهم بغضب:

- وماذا فعل "رءوف"؟

ردَّ آخر بألمٍ:

- وماذا سيفعل يا "همام"؟ إنه منذ ليلة أمس مع والده في قسم الشرطة.

رد الثالث بذهول:

– ماذا تعني يا "معتز"؟ هل قضى عم "صابر" ليلة بأكملها بقسم الشرطة؟!

ردَّ "همام" بغضبٍ وهو يتناول الشيشة من "زيزو":

– لم أشعر بالارتياح قط لذلك المدعو "عزمي حافظ".

هتفَ "صلاح" بخفوتٍ وهو يتطلع إلى "عزمي" الذي كان يهزُّ رأسه ويدندن بأحد الألحان الشعبية الشائعة:

– الحي بأكمله يعرف أن ثروته من مصادر غير مشروعة ولا يمكن أن يكون مصدرها معرض الدراجات.

هتف "معتز" ساخرًا:

– المهم الأدلة يا رفاق.. فـ "عزمي" وأمثاله لا يتركون وراءهم أي دليل لذلك...

لذلك تجد أيدي القانون دائمًا بعيدة عنهم.

رد "همام" وهو ينفث دفعةً كبيرةً من الدخان:

– قانون؟! أي قانون يا رفاق؟!

إن "عزمي" وأمثاله يحتاجون لقانونٍ آخر و.....

في تلك اللحظة تقع أعينهم على "رءوف" في طريقه إليهم، ولكنه ما إن تقع عيناه على "عزمي" حتى يهجم عليه صارخًا:

- إنت حيوان.. حيوان.. ولا بد أن تدفع الثمن.

يُسرِعُ الأصدقاء الثلاثة ويحولون بينه وبين "عزمي" الذي أخذَ يتطلَّع إليه غير آبهٍ وهو يعدل ملابسه، ثم يعود ويجلس فوق مقعده ويضع ساقًا على أخرى، في حين تتردد صرخات "رءوف" في جنبات المقهى:

- هذا الجبان.. سأجعله يدفع ثمن ما فعله بأبي.

يهتف به "صلاح" وهو يقدم له مقعدًا:

- يكفي هذا يا "رءوف"، أرجوك.

"معتز" يربت على كتفه قائلًا:

- أخبرنا بهدوء يا صديقي.. ماذا حدث؟

"رءوف" يردُّ بانفعال:

- هذا الجبان عندما كشفَ والدي سِتره، وعرفَ بأمر تجارته غير المشروعة تَرَكَ العمل عنده، ولكن هذا الحيوان لم يوافق وأصرّ على أن يعمل معه والدي ليضمن سكوته، ولَمَّا أصَرَّ والدي على ترك العمل، اتهمه باختلاس خمسة آلاف جنيه من خزينة المعرض.

ناوله "همام" كوبًا من الليمون وهتف به:

- وماذا حدث بالقسم؟

رد "رءوف" بألمٍ لا يمكن وصفه:

- لقد أمرت النيابة بحبسه أربعة أيـام عـلى ذمـة التحقيـق أو دفـع كفالة قدرها خمسمائة جنيه.

"صلاح" يُردِّد وعقله يكاد يُجنُّ:

- مستحيل أن يحدث هذا لـ "عم صابر".. الرجل الـشَّهم الطيـب الكريم و...

قاطعه "همام" قائلًا:

- لا تندهش يا "صلاح".. زمننا هذا هو زمن "عزمي" وأمثالـه.. زمن القوة والنفوذ والسلطة.

هتفَ "معتز" بألمٍ:

- والقانون يا "همام"؟! القانون؟

ردَّ "همام" ساخرًا:

- القانون؟! لقد ظللتُ أنا و"صـلاح" نـدرسُ القـانون بالجامعـة أربع سنوات، وبعد أن أجهدنا أنفسنا في دراسته اكتشفنا أننـا في حاجـةٍ لقانون آخر و....

قاطعه "صلاح" قائلًا بألمٍ وهو يقبض بكلتا يديه على جانبي رأسه:

- يكفي هذا يا "همام".. أرجوك.. أنا أشعر بـأن هـذا البلـد لـيس لنا.. أشعر كأننا.....

يتوقَّف عن الكلام فجأةً حين يدخل المعلم "غازي" بجسده الضخم وشاربه الكثِّ، وبيده عصا غليظةً لا تُفارِقُه يضرب بها على كفه الأخرى وهو يتطلع ببرودٍ إلى رواد المقهى الذين كانوا يتحاشون النظر إليه..

استقبله المعلم "توفيق" وهو ينهض من خلف مكتبه مُرحِّبًا:

- أهلًا بالمعلم "غازي".

يجلسُ "غازي" على مقعده وينفثُ دخان الشيشة التي أحضرها له عامل المقهى، وعيناه تدوران في وجوه رواد المقهى علّه يرى عين أحدهم مرفوعةً إليه فيكون بذلك قد جلب لنفسه اللعنة والخراب بيده..

كثيرون من أبناء الحي لا يعلمون من أين استمدَّ هذا الـ"غازي" قوته؟

من أين جاء بكل ذلك النفوذ والقوة والسلطة التي يتمتع بها؟

كل ما يعلمونه أنه هو عين الحكومة ويدها الباطشة بالمنطقة والحي بأكمله.. وأن من يغضب عليه هذا الـ"غازي" لا يطلع عليه صباح.. فأصبح الناس يعملون له ألف ألف حساب..

وهو قد استغل خوف الناس منه فبدأ يفرض عليهم الأتاوات، والناس يدفعون صاغرين، ولا يملكون الاعتراض..

كثيرون من مثقفي الحي كانوا يظنون أن زمن غـازي هـذا وأمثالـه من الفتوات كان قد انقرض مع زمن نجيب محفوظ، وأننا عـلى أعتـاب عصر جديد من الحرية والحفاظ على الإنسان وحقوقه وكرامته..

ولكن يبدو أن القائمين على أمن هذا البلـد وأمانـه كـان لهـم رأي آخر..

لا بد من مساعدة غازي وأمثالـه ليُحِكمـوا قبـضتهم وبقـوة عـلى مُقدَّرات هذا الشعب ويزدادوا تسلُّطًا عليه..

في تلك اللحظة اقترب المعلم "توفيق" منه، وهمسَ له وهـو يـضع بيده مبلغًا من المال:

- لا تنسَ يا معلم "غازي".. نريدُ حلًّا لموضوع صابر أفندي.

ابتسم "غازي" وهو يتحسس بأصابعه النقـود التـي بيـده، وقـال وهو يُغادِرُ مقعده مُتَّجهًا إلى "عزمي حافظ":

- لا تقلق يا معلم.

ينهض "عزمي حافظ" ويستقبل "غازي" مُرحِّبًا ويقدم له مقعدًا، فيجلس معه الأخير ويدور بينهما حديث هامسٌ دقيقة أو أقل ينتهي بأن يضع عزمي في يد "غـازي" رزمـة مـن المـال يـضعُها الأخـير في جيبـه وينهض، وهو يفتل شاربه مُغادِرًا المقهى في اللحظة نفـسها التـي بـصق فيها "توفيق" على الأرض قائلًا بضيق:

- طوال عمرك وأنت كلب للقرش يا "غازي"!

في تلك اللحظة ابتسم "همام" وهتف في رفاقه ساخرًا:

- أهذا هو القانون الذي تقصدونه يا رفاق؟!

ثم صمتَ لحظةً واستطرد وفي عينيه بريقٌ مخيف:

- إننا بحاجة لقانون آخر..

قانون من نوع خاص..

قانون الغاب!

وبرقت عيونهم وهم يتطلعون إليه في شرود.

***

(٢)

بخطوات بطيئة أخذ "همام" يتحسَّسُ مواضع قدميه وهو يصعد دجات سلم هذا البيت العتيق بالمنطقة ليتفادى السلالم المكسورة حتى وصل لسطوح ذلك البيت، حيثُ يعيش مع أمه في حجرتين شيَّدهما لهما صاحب البيت بعد أن عجز عن دفع الإيجار بعد وفاة والده منذ أكثر من عشر سنوات..

حين دَفَعَ باب الشقة الصغيرة وَجَدَ بمواجهتِه جسدًا نحيلًا مُنهكًا حَفَرَ عليه الزَّمن أعوامًا تعدَّت الستين، وقد انحنى ظهرها من كثرة عملها على ماكينة الحياكة..

تطلَّعت إليه الأمُّ في ترقُّبٍ لعلها تسمع خبرًا جديدًا منه يُدخل السرور على قلبها بعد هجرٍ طويل، ولكنه وضعَ عينيه بالأرض، وواصل طريقه إلى حجرته، وقبل أن يصل لبابها استوقفه صوت الأمِّ الواهن:

- المعلم "سلامة" صاحب المخبز يريدك أن تعمل معه بعد أن تحدثت مع زوجته و....

قاطعها صارخًا بقوةٍ في وجهها:

- قلتُ لا يا أمي... لا..

لن أعمل في المخبز.. إنني لم أذاكر أربعة أعوام بكلية الحقوق حتى أعمل في مخبز..

هل تسمعين؟ لن أعمل.

تطلعت إليه الأمُّ في حزن صامتٍ، ثم استدارت واتجهت لماكينة الحياكة، وألقت جسدها المُنهك عليها..

اقترب منها في خطواتٍ مُتثاقلة وخرجت الكلمات من حلقه بصعوبة وهو يقول لها:

- أرجوكِ يا أمي، لا تغضبي مني، وأعِدُكِ بأنني قريبًا سأجد العمل الذي يُناسبني، أعلمُ أنكِ تحمَّلتِ الكثير والكثير بعد وفاة أبي، ولكنني سأعوِّضُكِ يا أمي، هل تسمعين؟ سأعوضك.

تطلَّعت إليه الأم في نظرة خاطفة حزينة، ثم أمسكت بقطعة من القماش ألقتها على الماكينة و..

اندفع صوت الماكينة يصرخ في قوة..

ظَلَّ "همام" مكانه يتطلَّع إليها لحظاتٍ ثم اتَّجه لبـاب الـشقة الـذي وَلَجَه منذ قليل و..

انطلق خارجًا ومن حلقه انطلقت تنهيدةٌ حارة!

***

(٣)

تطلَّع "معتز" إلى أمِّه التي لم تتخلَّ عن ملابسها السوداء منذ وفاة والده منذ عام كامل، وإلى أخيه الصغير "تامر" ذي السنوات العشر والذي يجلس بجوار أمه وقد انكمش في جسدها ثم هتفَ بصوتٍ حاول قدر إمكانه أن يخرج من حلقه هادئًا:

- لا فائدة يا أمي، لقد أنكرَ عمي أن أبي قد سدَّد له ديونه قبل وفاته، واستولى على المحل الذي كان يُشارك فيه أبي بمفرده، ولا أدري ماذا سنفعل؟ هل نلجأ للقضاء؟ وإذا فعلنا من أين نأتي بمصاريف المحامي والمحاكم؟!

تنهدت الأم ثم نظرت إلى السماء - من النافذة - التي بدت ملبدة بالغيوم، ثم ربتت على كتف ابنها "تامر" الذي اعتدل في جلسته، ونهضت الأم واتجهت نحو صورة قديمةٍ بالأبيض والأسود قد عُلقت

على مقربة من باب الشقة، وهتفت بكل ما تعتمل بـه جوارحُهـا مـن ألمٍ ودموعها تسيل على الرغم منها، وقد غابت بين تجاعيد وجهها:

- هل رأيتَ يا كامل؟ هل رأيتَ ما فعله أخوك الأصغر؟!

لقد استولى عليه الطمع، ونسيَ كل ما فعلته أنت من أجله، وكيـف كنتَ تعامله مثل أولادك، لقد أنكر أنكَ دفعت له ديونك، واستولى على المحل الذي كان يشاركك فيه...

المحل يا كامل مصدر رزقنا الوحيد.

لم يستطع "معتز" أن يسمع أمه أكثر من ذلك بعـد أن انفلتـت مـن عينيه دمعةٌ ساخنة سالت على خده..

فتطلع إليها.. ثم إلى أخيه الأصغر..

وانطلق خارجًا وفي أعماقه كان هناك بركان يوشك أن ينفجر!

***

(٤)

نهضت "فاتن" من فراشها في ذلك الصباح، وبدا من عينيها أنها لم تذُق طعمًا للنوم طوال الليل، من حلقها انطلقت تنهيدةٌ حارةٌ، وهي تتطلع إلى وجهها في المرآة، وقد ظهرت بعض الهالات السوداء تحت عينيها، فردت شعرها الناعم، وراحت تتحسَّسه بأصابعها، من عينيها انفلتت دمعة ساخنة سالت على خدها في نعومة حين وقعت عيناها على تلك الشعرة البيضاء التي تسللت إلى شعرها...

لم تكن أول شعرة بيضاء تراها بشعرها.. فمنذ شهر تقريبا رأت أول شعرة بيضاء بشعرها..وها هي الشعرة الثانية تتسلَّلُ لشعرها الأسود على الرغم منها.. وتذكرته..

حبيبها "كمال"..

كمال الذي سافر منذ ما يقربُ من خمس سنوات ليحضر لها المهر والشبكة ويتزوجها..

كمال الذي خَطَبَها وقرأ الفاتحة مع والدها قبل أن يسافر هو وقبل أن يتوفَّى اللهُ والدها..

سالت من عينيها دمعةٌ أخرى وهي تهتف بأعماقها في لوعة:

- أين أنتَ يا " كمال "؟!

خمس سنوات مرت على رحيلك..خمس سنوات ولا تحمل خطاباتك خبرًا يجعلنا نتفاءل بحياة سعيدة مستقرة في المستقبل..نعم فما زالت ظروفك كما هي لم تتحسن، والعمر يمضي.

من حلقها انطلقت زفرةٌ حارة أخرى وهي تتحرك بتثاقلٍ تجاه مكتبها الصغير في حجرتها..

ألقت جسدها المُنهك فوق المقعد، وراحت أعماقها تصرخ في ثورةٍ:

- أين طريق السعادة من فتاة مثلها؟

اسمها " فاتن "، وهي فاتنة بحق..

ظلت محتكرة المركز الأول لملكة جمال كلية الإعلام طوال سنوات دراستها بالجامعة..

جميع طلاب دفعتها والدفعات التي تلتها كانوا يمنون أنفسهم بفتاة مثلها..

نعم.. كانت "فاتن" حلم الجميع.. ولكنها اختارته هو.."كمال".. الذي لم ينبض قلبها بالحب إلا له..الذي سيطر بحبه على قلبها ومشاعرها وكيانها.

زفرة حارة ثالثة انطلقت من حلقها وهي تمدُّ أصابعها الرقيقة وتفتح جهازها الخاص..

وبمهارة انتقلت أصابعها إلى صفحتها على أحد مواقع التواصل الاجتماعي..

ووجدت في صندوق رسائلها الخاص أكثر من خمسين رسالة.. نعم خمسين رسالة..

ولكن جميعها من شخص واحد..

"سامر"..

ذلك الشاب العربي الذي تعرفت إليه منذ ثلاثة أشهر..

في البداية اعتبرته صديقًا عاديًّا كآلاف الصداقات التي تنشأ على مواقع التواصل الاجتماعي..

ولكنه شيئًا فشيئًا بدأ يتقرَّب إليها ويحكي لها الكثير والكثير عن أموره ومشكلاته الخاصة..

ثم أرسل لها صورته..

كان شابًّا وسيما يُمثِّل حلمًا لكل فتاة..

وبسرعة طافت عيناها برسائله..جميع الرسائل تحوي مطلبًا واحدًا وبإلحاح..إنه يعرض عليها الزواج.. ولم تكن أول مرة يعرض عليها هذا الأمر..لقد عرضه منذ أسبوعين ورفضت هي وبحسم..ولكن ها هو عاد من جديد يُلحُّ ويلح.. طافت عيناها برسائله فوجدت بها صورًا عديدة لفيلا فخمة حولها حديقة غنّاء وتحتها عبارة واضحة " فيلتك حبيبتي بعد الزواج "..

وطافت عيناها بين رسائله مرة أخرى..وجحظت عيناها في ذهول..فبين رسائله كان يوجد حلمها..حلمها الذي من أجله التحقت بكلية الإعلام..إعلامية فضائية مشهورة..

نعم.. بين رسائله يوجد عقد يحمل اسمها للعمل في محطة فضائية شهيرة بإحدى دول الخليج..

دمعة ثالثة سالت على خدها وهي تتابع رسائله وصور فيلته الجميلة وعقد المحطة الفضائية..

بكل ألمٍ التفتت لمرآتها وتطلَّعت إلى وجهها وتذكَّرت أمر الشُّعيرات البيضاء التي تسللت لشعرها في غفلة منها و....

دون أن تشعر – ولأول مرة منذ أسبوعين – قررت أن ترد عليه وكتبت:

– لِمَ كل هذه العروض وأنتَ تعرف أني أحبُّ غيرك؟

وجاءها الرد وكأنه كان على موعد معها:

- وأنا لم ولن أحبَّ غيرك.

دمعة رابعة تسيل وأصابعها تكتب:

- ولكني أحب "كمال".. ولن تكون سعيدًا معي.

- أنا أضمن سعادتكِ وسعادتي.

سيطر عليها الصمت لحظاتٍ بعد عبارته تحولت فيه دمعاتها القليلة إلى شلال من الدموع انهمر من عينيها وأغرق خدها الجميل..

صمتها شجعه على مواصلة الكتابة والطرق على الحديد وهو ساخن:

- "فاتن".. كوني على يقين أنني أحمل لكِ كل ما تحلمين به..أحمل لكِ الحب.. والنجاح.. والمستقبل و...

جاءته حروفها من بين دموعها لتقاطعه:

- أوافق.

- ماذا.. ماذا قلتِ يا "فاتن"؟!

ازداد انهمار دموعها وأصابعها تكتب:

- أقول لكَ موافقة.. موافقة على الزواج بكَ.

صمت لحظاتٍ شعرت فيها "فاتن" أن قلبه يدقُّ بشدة وصدره يعلو ويهبط غير مصدق، ثم جاءتها كلماته بحروف من أصابع مرتعشة أو هكذا تخيلته:

- "فاتن".. حبيبتي.. أعدكِ بأنكِ لن تندمي.. لن تندمي أبدًا.

راحت أصابعها - بعد أن أغلقت صفحة التواصل الاجتماعي - تتخلل شعرها الذي تهدل فوق جبينها وابتل بدموعها الغزيرة ثم صرخت في لوعة أشبه بطائر ذبيح:

- آسفة... آسفة يا "كمال".

(٥)

ولج "همام" بقدميه إلى غرزة بمقابر الإمام الشافعي، وألقى جسده فوق دكة خراسانية مجاورة للحائط في إنهاك وألم متزايدين، وتناول النارجيلة من "عادل حشيشة" صاحب الغرزة الذي أخذ يتطلع إلى همام بابتسامة بلهاء وهو يطعم الحجر بالحشيش ويضع عليه قِطعًا صغيرة من النار، لم يهتم به "همام" ولا بابتسامته البلهاء، وراح يجذب نفسًا عميقًا من الدخان الأزرق الذي اندفع من فمه بقوة..

ومع سحب الدخان الأزرق أسند رأسه إلى الحائط وترك لخياله العنان..

كانت صورة أمه وقد انحنى ظهرها على ماكينة الحياكة – التي بُحّ صوتها من الصراخ – لا يفارق مخيلته..تذكر الأحلام التي طالما راودته

وهو بالجامعة بأنه سيتفوق ويقدم في النيابة ويصبح وكيلًا للنائب العام..ثم تذكر كيف تضاءلت أحلامه واكتفى أن يكون محاميًا مشهورًا يُشار إليه بالبنان..

وتذكر عدد المحامين الذين عمل عندهم بعد تخرجه..وتذكر قدر التعب والسهر الذي كان يبذلهما ولا يجني من وراءهما شيئًا.. تذكركيف وجد عمره يمضي وهو لا يتحرك من مكانه في حين أن الشهرة والثروة للمحامين الذين يعمل عندهم..فقرر أن يترك العمل في مكاتب هؤلاء المحامين..

وصلت أحلامه للمحطة الأخيرة..أن يفتح لنفسه مكتبًا صغيرًا للمحاماة يكبر معه شيئًا فشيئًا..

ولكن من أين له الشقة التي يفتحها مكتبًا وهو لا يملك شيئًا؟! تنهَّد في مرارة بين سحب الدخان الأزرق الذي يندفع من فمه بغزارة وهو يرى أمام عينيه أحلامه تتلاشى واحدًا بعد الآخر و.....

- "كنتُ أعلم أني سأجدُك هنا".

أفاق "همام" من شروده على صوت "معتز" الذي ألقى جسده على الدكة بجواره ويقول ضاحكًا وهو يتناول النارجيلة من "عادل حشيشة":

- حين سألتُ عليك بالبيت وقالت أمك أنكَ خرجت قلتُ إنكَ هنا.

ابتسم "همام" في مرارة وقال:

- وأين سأذهب؟ وهل لنا مكان آخر؟!

أخذ "معتز" نفسًا عميقًا من الدخان الأزرق نفثه في قوة وقال:

- معك حق يا "همام".. فهذا هو المكان الوحيد الذي يسعنا عندما تضيق بنا الحياة.

ردَّ عليه "همام" متسائلًا:

- هل جدّ جديد؟

- نعم.. لقد تركتُ أمي تخاطب صورة أبي وتخبره أن أخاه الشقيق الذي رباه وكان يعامله كما يعاملُ أولاده قد أكل حقنا وطمع في محل الخردوات مصدر رزقنا الوحيد..

كان صوتها الباكي وهي تخاطب الصورة كالسكاكين تقطع نياط قلبي، فلم أحتمل فتركتُها وخرجتُ أبحثُ عنكَ.

تراجعَ "همام" برأسه إلى الحائط مرة أخرى وقال وعلى شفتيه ابتسامة مريرة:

- وكيل نيابة، فمحامٍ مشهور، فعامل في مخبز..

- ماذا؟ عامل في مخبز؟

- نعم.. أمي تريدني أن أعمل في مخبز سلامة و....

- "وماذا قلتَ لها؟"

التفت الاثنان لصاحب العبارة السابقة فوجدا أمامهما "رءوف" و"صلاح" وقد اتخذ كلٌّ منهما مكانه على الدكة بجوارهما... هتف "معتز" ضاحكًا:

- الآن قد اجتمع الشمل.

"عادل حشيشة" يُوزِّع عليهما ابتسامته البلهاء، وهو يناول كلًّا منهما النارجيلة الخاصة به و"همام" يسألهما:

- ما الذي جاء بكما؟

هتف "رءوف" وهو ينفث دخان النارجيلة:

- كان من الصعب عليّ أن أدخل البيت ولا أجد عم "صابر" فيه، فقرَّرنا أن نقضي هنا ما تبقَّى من الليل لحين طلوع الصباح حتى ندفع الكفالة لأبي ويخرج.

سأله "معتز":

- وماذا فعلتَ في الكفالة؟

ردَّ "صلاح":

- المعلم "توفيق" بارك الله فيه، أعطِ رءوف خمسمائة جنيه ليدفع الكفالة.

هتف "همام" من بين سحابة الدخان الأزرق:

- ولكن هذا لا يعني أن المشكلة قد انتهت.

قال "رءوف" بألمٍ:

- أعلمُ هذا يا "همام".. ولا أدري ماذا أفعل.

هتف "صلاح":

- لا بد أن يتنازل "عزمي حافظ".

تطلَّع إليه "رءوف" بتساؤل وقال:

- أنا على استعداد لأن أذهب وأتوسَّل إليه حتى يتنازل و...

قاطعَه "همام" وفي عينيه بريق غضبٍ مخيف:

- التوسَّل لن ينفع مع "عزمي" وأمثاله.. لا بد أن نجبره على التنازل.

هتفَ "معتز":

- نجبره؟ كيف يا "همام"؟!

- لا أدري.. ولكن هذه هي الطريقة السليمة للتعامل مع أمثاله و...

قطعَ حديثه في تلك اللحظة دخول رجل تعدَّى الخمسين بعامين أو ثلاثة، وعيناه تدوران في محجريهما حتى توقفتا على "عادل حشيشة" فأسرع إليه صارخًا في وجهه بهلعٍ وهو يناوله سلسلة مفاتيح:

– خذ يا "عادل".. هذه مفاتيح بيتك الملعون.. لا أريد أن أسكن في هذا البيت.

ربت "عادل حشيشة" على كتف الرجل مُحاولًا امتصاص غضبه وتهدئته قائلًا:

– اهدأ يا عم "صبحي".. وأخبرني ماذا حدث؟

بلعَ الرجلُ ريقه واستجمع قواه ليخرج صوته من حلقه مُتعثرًا وهو يقول:

– هذا البيت مسكون، إن الموتى يتجولون فيه طوال الليل، وبالأمس كاد قلبي يتوقف عن النبض وأخشى أن يموت أولادي من الرعب، صدقني يا "عادل".. هذا البيت مسكون.. مسكون.

ردَّ "عادل" وهو يناول "همام" نارجيلة أخرى:

– كلها إشاعات يا عم "صبحي"، ولا تصدق مثل هذا الكلام.

صرخ الرجل بثورة في وجه "عادل":

– إشاعات أو غير إشاعات، أنا لا أريدُ هذا البيت الملعون، لا أريدُه.

وألقى مفاتيح البيت في وجه "عادل"، وانطلق مغادرًا المكان وكأن كل شياطين جهنم تُطارِدُه!

***

(٦)

- "أمي.. لقد أرسل "سامر" تحويلًا بنكيًّا آخر بألف دولار".

ألقت فاتن تلك العبارة على مسامع أمها التي خرجت لتوها من المطبخ وقالت مبتسمة:

- ولكن هذا كثير يا ابنتي، لقد أرسل من قبل واشترينا كل ما تحتاجينه.

تناولت "فاتن" أصابع أمها في حنان وأجلستها بجوارها على الأريكة وهتفت:

- إنه هذه المرة يطلب مني عمل بعض التحاليل.

تطلعت إليها الأمُّ بتساؤل وقلق وعدم فهم فاستطردت فاتن:

- يقول إنها تحاليل من أجل السفر من ناحيةٍ، ومن أجل الاطمئنان عليَّ من ناحية أخرى.

- أي نوع من التحاليل؟

تحاليل للدم والقلب والكبد و...

قاطعتها الأم مبتسمة وهي تربت على كتفها وقد عاد إليها هدوؤها:

- لا بأس يا ابنتي.. إنه يريد الاطمئنان على صحتك.. وهذا حقه.

تنهدت "فاتن" وقالت:

- نعم يا أمي... هذا حقه.

اقتربت منها الأم وقالت وهي تتطلع إلى عينيها:

- ابنتي "فاتن".. اسمعيني جيدًا.. لو أن قلبك ما زال معلقًا بكمال فمن الممكن أن...

قاطعتها "فاتن" قائلةً:

- سبق السيف العذل يا أمي.. سامر سيأتي نهاية الأسبوع القادم لعقد قراني مباشرة بعد أن أرسل له نتائج التحاليل غدًا ثم.. ثم ماذا فعل الحب لي أو لكمال؟!

ربتت الأم على كتف ابنتها الوحيدة وقالت:

- من الواضح يا بُنيتي أن "سامر" هذا شابٌّ كريم وذكي وسيفعل كل ما بوسعه ليجعلك تحبينه سريعًا ثم..ثم هل تظنين أن كل الزيجات

التي تمت كانت على حب..لا يا ابنتي.. فكثيرًا ما يأتي الحب بعد الزواج.

كانت "فاتن" تستمع لكلام أمها وهي موقنة أنها تتمنى لها كل الخير، وكان عقلها مؤمنًا بمعظم ما تقوله أمُّها، ولكن قلبها لم يشعر بالراحة.. قط!

***

(٧)

هتفَ الصحفي الشاب "حاتم منير" وهو يجلس على كرسي الحلاقة بصالون "أحمد راغب" المجاور للمقهى:

- لا يا عم "أحمد".. إن الظلم قد وصل مداه، والشعب لن يصمت بعد اليوم.

رد عليه "أحمد راغب" وهو يضع منشفة الحلاقة على صدره:

- يا أستاذ "حاتم".. ما نعرفه أفضل مما لا نعرفه، والشعب المصري شعب أصيل كريم لا يُنكر الجميل أبدًا.

اعتدل الصحفي الشابُّ وقال بحدة:

- الشعب المصري فعلًا شعب أصيل وكريم يا عم أحمد، ولكن أين هذا الجميل الذي لا يستطيع إنكاره؟

سيطرة مجموعة من رجال الأعمال والمحاسيب على مقدرات الدولة، أم مصادرة الآراء والحريات ومحاولات خنق الإبداع، أم تجبُّر رجال الشرطة الذين يتعاملون كآلهة لا حساب ولا رقيب عليهم و...

قاطعه "أحمد راغب" وهو يشعل سيجارته قائلًا:

- وماذا بعد يا أستاذ "حاتم"؟ الشعب يخشى مما سيحدث لو سقط هذا النظام.

- مهما يكن ما سيحدث يا عم "أحمد"... سيكون أفضل مما نحن فيه.

تطلَّع إليه "أحمد راغب" ثم صمت عن الكلام فجأة بعدما اكتشف عدم مقدرته على مجاراة الحديث معه، فأحسَّ به الصحفي "حاتم منير" فنهض من أمامه قائلًا وهو يُربت على كتفه:

- صدقني يا عم "أحمد".. الشعب المصري كان بمقدوره أن يتحمل فوق ذلك عشرات المرات لولا..

لولا تلك الأحداث الأخيرة.

- ماذا تقصد؟

- أقصد تزوير انتخابات مجلس الشعب والاستهتار بإرادة الشعب وكرامته، والتهيئة لتوريث الحكم.

قال حاتم ذلك وتوقَّف عن الحديث وهو يمدُّ يده في حقيبته ويُخرج مجموعة من الأوراق يُلوِّح بها في وجه الرجل قائلًا:

- هل ترى هذا المقال يا عم " أحمد "؟ جميع الصحف رفضت نشره..

نعم.. كل الصحف الحكومية وحتى المعارضة..

ولكني لن أيأس، وستصل كلمات هذا المقال لكل الناس.. في كل مكان..

هتفَ "أحمد راغب" وهو يُلقي سيجارته أرضًا:

- وكيف وقد منعوا عنك النشر يا ولدي؟

أعاد "حاتم" أوراقه بحقيبته مرة أخرى وقال:

- لا تقلق يا عم "أحمد".. هناك طريقة جديدة للنشر لا يمكن السيطرة عليها بسهولة.

وصمت لحظةً لمعت فيها عيناه ببريق الأمل وهو يستطرد:

- وحينها لن يكون أمام هذا النظام إلا شيء واحد..

الرحيل.. والرحيل فقط.

وبرقت عيناه في أمل.

***

(٨)

نهضتْ "عفاف" – أخت صلاح – من فراشها في ذلك الوقت المتأخر من الليل داخل حجرتها في تلك الشقة الصغيرة، وخرجت منها واتجهت لحجرة مجاورة لها، فوجدت فِراشها مُرتبًا كما هو، فهتفت وهي تنظر لساعة الحائط التي أشارت عقاربها أنها قد تعدت الثانية بعد منتصف الليل:

– "صلاح".. لم يعد بعد كعادته.

هزَّت رأسها واتجهت بخطوات متثاقلة لحجرتها مرة أخرى..

من حلقها انطلقت تنهيدة حارة وهي تتجه للمرآة..أخذت تتطلع إلى جسدها في المرآة..هتفت بأعماقها في مرارة:

– مَن مِن فتيات الحي تملك مثل هذا الجسد.. هذا الجمال.. هذا الخِصر.. هذا الشعر الأشقر؟!

وصمتت لحظةً ألقت فيها جسدها فوق فراشها المواجه للمرآة وهي تستطرد في مرارة متزايدة:

- وهذا الفقر..

الفقر الذي جعل كل الرجال والشباب يفكرون ألف مرة قبل أن يتقدم أحدهم لفتاة فقيرة مثلي..

ولكن ماذا أفعل؟

إن العمر يمضي.. لقد تعدت الثالثة والثلاثين منذ عدة أشهر.. إنها أكبر من أخيها صلاح بأربع سنوات كاملة..إن من في مثل عمرها قد تزوجن وأنجبن و.....

طرقات خفيفة على نافذة حجرتها المطلة على الشارع..انتابها الرعب لحظاتٍ ثم استجمعت شجاعتها ونظرت للطارق من خلف شيش نافذتها..

لقد كان هو..

"ناصر غازي"..ابن المعلم "غازي"..إنه يطاردها باستمرار..وما زال مُصرًّا على مطاردتها..فضلت الصمت لعله ييأس ويذهب ولكنه كرَّر طرقاته مرة ومرات..

هتفتْ بقلقٍ:

- إن أخي لم يعد بعد ولو رآك فـ...

قاطعها "ناصر غازي" قائلًا بجرأة اكتسبها من نفوذ والده بالحي:

- لا تخافي يا "عفاف".. أنا "ناصر"، وأنتِ تعلمين أني أحبكِ، ولا يمكن أن أتخيل حياتي بدونك.

أحست بنسمة رقيقة تهبُّ على قلبها وتدغدغ مشاعرها مع كلماته التي لم تسمعها من أحد من قبل وشعرت بنشوة وسعادة تغمر كيانها ولم ترد..

استطرد "ناصر" قائلًا وقد شجعه صمتها:

- لا تخافي يا "عفاف"، واعلمي أن سعادتك ستكون معي..معي وحدي.

بذلت جهداً رهيبًا ليخرج صوتها من حلقها قائلة بتوتر:

- أرجوك انصرف الآن.. انصرف قبل أن يأتي أخي.

شعر بينه وبين نفسه أنه صار قاب قوسين أو أدنى من الوصول لهدفه، فهتف بصوتٍ جاهَدَ ليجعله يخرج رقيقًا:

- لن أنصرفَ قبل أن أسمع منكِ وعدًا.

ألقت على جسدها في المرآة نظرةً أخرى وهتفت بحسرة:

- وما الوعد الذي تودُّ سماعه؟

هتف وقد لمعت عيناه ببريق النصر:

- أريد وعدًا منكِ بلقاء خارج الحي.

تطلعت من خلف شيش النافذة إلى جسده الضخم ووجه المكتنز ولم ترد، وراحت تتحسَّس بأصابعها شعرها الأشقر وشفتيها المكتنزتين..

ارتفع صوته بقوة:

- إن لم تردي سأُحطِّم تلك النافذة الآن.

ردت عليه بكل ألمٍ وحنين وشوق تئنُّ به جوارحها:

- أعدُكَ.

وألقتْ جسدها فوق فراشها وهي تلتقط أنفاسها بصعوبةٍ وكأنها خارجة لتوها من سباق..سباق طويل!

***

(٩)

توقَّف "الشامي" عن مضغ السندويتش الذي يتناوله وهو جالس على المقهى وعيناه على الجراج تتابعان السيارات الداخلة والخارجة وفجأة...توقَّف عن مضغ ما بفمه حين وقعت عيناه على الرصيف المقابل للمقهى، وقد جلس "السيد حبيب" يتطلع إليه، نهض "الشامي" وأخرج من لفافته سندويتشًا آخر ناوله إياه "السيد حبيب" الذي تتطلع إليه لحظة في صمت ثم تناول منه السندويتش وراح يتناوله في نهمٍ..

- "أنتَ هنا.. وأولادك يصرخون من الجوع".

توقَّف "السيد حبيب" عن مضغ ما بفمه وهو يتطلع إلى زوجته التي تقف أمامه وصرخت بالعبارة السابقة، كانت أمامه والغضب يعصف بها، ومن خلفها كان أولادها الثلاثة أكبرهم كان في الرابعة عشرة من عمره وأصغرهم كان على كتفها لم يتم سنواته الثلاث...

تطلَّع "السيد حبيب" لزوجته وأولاده الأربعة، وركن السندويتش جانبًا وقد سيطر عليه هَمٌّ وحزن عظيم ولم يرد عليها..

فصرخت الزوجة بوجهه مرة أخرى:

- لا يوجد بالمنزل شيء آخر يمكن بيعه، لقد بعت كل شيء..والأولاد ما زالوا يصرخون ويبكون، ولا يجدون ما يسدون به رمقهم..أخبرني يا "سيد".. ماذا أفعل الآن؟ لم يتبق إلا أن أبيع نفسي.. هل تسمع يا "سيد"؟ أبيع نفسي.

قالت الزوجة ذلك وانهارت بجواره على الرصيف باكية ومن حولها أولادها، في تلك اللحظة أقبلَ عليهم المعلم "توفيق" وأخرج من جيبه مبلغًا من المال أعطى زوجة "السيد حبيب" إياه وقال لها:

- خذي هذا المبلغ وعودي بأولادك لبيتك وأطعميهم ومع أول كل شهر لكم مثل هذا المبلغ.

نهض "السيد حبيب" يريد أن يقبل يده ولكن المعلم توفيق ربت على كتفه وقال:

- كله من فضل الله يا عم "السيد".. كله من فضل الله.

انطلقت الأمُّ بأولادها الثلاثة، وعاد المعلم توفيق للمقهى وراح يهتف بـ "زيزو" في اللحظة نفسها التي وصل فيها الأصدقاء الأربعة:

- شاي لعم "السيد حبيب" يا "زيزو".

وفي تلك اللحظة كان "معتز" يسأل "رءوف" قائلًا:

- وأين عم "صابر" الآن؟

ردَّ "رءوف" بحزن:

- في البيت يريد أن يستريح.

ربت "صلاح" على كتفه وقال:

- لا تقلق يا "رءوف".. إن عم "صابر" لن ينسى اليومين الماضيين بسهولة.

هتف "معتز":

- المهم وماذا بعد؟ هل سيتنازل "عزمي حافظ"؟

قبل أن يرد أحدهم جاءهم الرد على لسان "حاتم منير" الصحفي من المائدة المجاورة لهم وهو يقول:

- لن يتنازل "عزمي حافظ".

التفت إليه الأصدقاء الأربعة فانتقل بجوارهم بمقعده قائلًا:

- آسف لتدخلي.. ولكن خذوها مني كلمة.. لن يتنازل "عزمي حافظ".

ربت " همام "على كتفه قائلًا:

- لا داعي للأسف يا أستاذ "حاتم".. أنت صديق ثم..ثم إن هذا هو رأيي أيضًا ولا بد أن نجبره على التنازل.

هتف "رءوف" بألمٍ:

- أنا على استعداد لأتوسل إليه.

ابتسم "حاتم منير" وقال:

- حتى التوسل والاستجداء لن ينفع مع "عزمي"..

فعزمي هو عنوان للنظام بأكمله..نظام نخر فيه السوس وسيطر عليه الفساد..نظام لا بد من هدمه من الأساس وإعادة بنائه من جديد و....

هتف "صلاح" مُقاطعًا:

- إنك بذلك قد حولتها لقضية عامة.

وضع "حاتم" ساقًا على أخرى وقال:

- هي بالفعل قضية عامة.. فلولا الفساد الذي استشرى في أركان الدولة ما جرؤ "عزمي" وأمثاله على فعل ما يفعلون.. صدقوني.. لا بد من الهدم وإعادة البناء من جديد و....

انطلقت في تلك اللحظة الزغاريد من المبنى المقابل للمقهى، وأقبل زيزو صبي المقهى وهو يقول:

- اليوم عقد قران "فاتن" على شابٍّ عربي من الخليج.

هتف معتز بدهشة:

- هل تقصد فاتن ابنة الأستاذ رشاد رحمه الله؟

أومأ زيزو برأسه وتركهم في حين صرخ صلاح:

- مستحيل.. فاتن خطيبة كمال!

هتف رءوف وقد عقد حاجبيه:

- وكمال؟!

"كمال" الذي سافر ليُحضِر المهر والشبكة!

صرخ صلاح في ثورة جعلت رواد المقهى يلتفتون إليه:

- من المستحيل أن تكون فاتن قد نسيت كمال... ومِن أجل مَن؟! شابٍّ عربي لا نعرف أصله ولا فصله.

"همام" يردُّ في مرارة:

- نعم يا رفاق.. إننا بالفعل لا نعرف أصل هذا الشاب ولا فصله، ولكنه يملك المال.. وهذا هو زمن المال.. هل تعلمون ما يمكن أن يفعله المال؟!

تراجَعَ "معتز" بظهره للوراء وقال بكل أسى الدنيا:

- لقد قال "كمال" في خطابه الأخير إنه سيعود في نهاية هذا الشهر..

رد "همام" بألمٍ مكبوت:

- نعم سيعود.. ولكن لماذا؟ ومِن أجل مَن؟!

ظَلَّ الصحفي الشابُّ "حاتم منير" يتابع حوارهم في صمتٍ، ثم قال لهم وعلى شفتيه ابتسامة مريرة:

- ألمْ أقل لكم؟! لا بد من الهدم وإعادة البناء!

***

(١٠)

أمام حديقة الفسطاط وقفتْ "عفاف" تتطلع بقلق إلى "ناصر غازي" - وهي تتلفت حولها - وقد أقبلَ عليها "ناصر" من بعيد بجسده الضخم الشبيه بالثور وهو يعبث بأصابعه في سلسلة ذهبية تحيط برقبته، وعيناه تتفحصان جسد عفاف في نشوة وسعادة..هتف بها وهو يتطلع إلى عينيها:

- آسف لأني تأخرت عليكِ.

ردتْ بقلق وهي تتلفت حولها:

- أخبرني الآن وبسرعة.. ماذا تريد حتى أعود ولا أتأخر.

أشار لباب الحديقة قائلًا:

- وهل نتحدث هنا؟! إننا بذلك عُرضة لأن يرانا أحد من المنطقة.

قال ذلك وقبض بأصابعه على كَفِّها في رفقٍ واتَّجه لباب الحديقة..

ارتعدت كفاها بين أصابعه وهي تهتف بتوتر:

- مع وعد ألا نتأخر.

أحاط كتفها بذراعه في جرأة وقال وهما يعبران باب الحديقة:

- لا تقلقي يا حبيبتي.. لا تقلقي.

وصلا معًا لدكة خراسانية مُعدَّة للجلوس وتعلوها شجرة كبيرة مُورقة الفروع والأغصان، فجلسا متجاورين وذراعه ما زالت تتطوق كتفيها.. هتف بها وهو يتطلع إلى عينيها مباشرة:

- "عفاف".. أنتِ تعلمين أني أحبكِ، ولا يمكن أن أتخيل حياتي بدونك.

تطلعت إليه ولم تقوَ على الرد، في حين كان هو يهيم في عينيها السوداوين، وامتدت كفَّه تتحسس ظهرها، فارتعدَ جسدُها لملمس أصابعه، وسرت فيه قشعريرة استسلمت لها لحظاتٍ في استمتاع ثم استجمعت قواها وهتفت بتلعثم وهي تبعد يده عن ظهرها:

- وماذا بعد الحب؟

اقترب منها بجسده الضخم حتى التصق بجسدها قائلًا في همس:

- وهل هناك شيء بعد الحب غير الزواج؟ ستكونين زوجتي طبعًا؛ فأنتِ الحُلم الذي اشتاقت إليه نفسي طويلًا..نعم.. فأنا لا أستطيعُ أن أنسى عينيك الجميلتين وشعرك الناعم و..

وصمتَ لحظةً تحسَّست فيها أصابِعُه شفتيها المُكتنزتين..

واستطرد:

- وجمالَ شفتيك.

أما هي فقد استسلمت له تمامًا ورقص قلبها طربًا مع كلماته ولمساته وهتفت:

- وأنا أيضًا أحبُّك... أحبك يا "ناصر"...

تطلع إليها ثم ألقى نظرةً على المكان حوله بعينيه الشبيهتين بعيني ذئبٍ مفترس ثم ضمَّ جسدها لصدره وغابا معا في قبلةٍ طويلةٍ وكأنها قبلة الموت!

***

(١١)

تنهدت أمُّ "معتز" في مرارة وهي تقف أمام فرش صغير للخضار على جانب الشارع، أمام محل زوجها الراحل الذي انتزعه منهم "راضي" شقيق زوجها، وانطلقت من حلقها تنهيدة أخرى وهي تضع قطرات من الماء على الخضار ليحتفظ بنضارته، وفي اللحظة نفسها تتوقف أمامها عربة إشغالات الطرق التابعة للحي الذي تقع في نطاقه المنطقة، ونزل منها بعض العمال التابعين للحي، وهجموا على فرش الخضار في ضراوةٍ وكأنهم يحاربون العدو الإسرائيلي، وراحوا يحملون الخضار ويلقونه في صندوق عربتهم الخلفي وسط صرخات أمِّ "معتز"، وقد ألقت جسدها بجوار الحائط باكيةً ولمحت من بين دموعها "راضي" شقيق زوجها يبتسم في خبثٍ وهو يتابع العمال يبعثرون فرش الخضار:

- حسبي الله ونعم الوكيل... حسبي الله ونعم الوكيل.

تجمَّع سكان المنطقة يتابعون ما يحدث في أسًى دون أن يجرؤ أحدهم على التدخل، في حين رقَّ قلبُ رئيس الحملة لصرخات أمِّ "معتز" فاتَّجه إليها قائلًا:

- هذا إشغال طريق... وإن تكرر سيكون هناك غرامة وحبس.

قال ذلك ثم أشار إلى رجال حملته فركبوا السيارة التي انطلقت بهم مغادرة الحي في اللحظة نفسها التي ظهر فيها "غازي" بجسده الضخم وبيده عصاه التي يضرب بها على كفه الأخرى كعادته وهو يسير الهُوَيْنَى كالطاووس ويتَّجه إلى "راضي" شقيق الزوج وفي عينيه ابتسامة ظافرة، ويتناول منه رزمة من المال يضعها بجيبه ثم يلقي على المرأة الباكية نظرة ساخرة قبل أن يتركها ويمضي!

***

(١٢)

- "سأقتله يا "همام".. سأقتله".

هتف "معتز" بعبارته في وجه "همام" وبيده آلة حادة التقطها من عند "عادل حشيشة" عندما علم بما فعله عمُّه الشقيق بمساعدة "غازي" في فرش الخضار الذي أنفقت أمُّه في إعداده آخر قرش كانوا يدخرونه للزمن.. هتف "همام" وقد سيطر عليه وانتزع الآلة الحادة من يده قائلًا:

- وماذا بعد أن تقتله يا صديقي؟! سيلقونك في السجن وتترك أمك وأخاك وحيدين.

ردد "معتز" من بين دموعه:

- هما الآن أيضًا وحيدان يا "همام"..فماذا استفادا من وجودي معهما؟ أنا عاجز... عاجز يا " همام ".

ربت "همام" على كتفه ودعاه للجلوس وأشار إلى "عادل حشيشة " الذي أقبل عليهما وناول كل منهما النارجيلة الخاصة به، أخذ "معتز" يتطلع إلى النارجيلة في شرودٍ وقال بصوت يقطر ألمًا:

- نعم يا "همام".. أنا عاجز.. لم أستطع الوقوف في وجه عمي حين أكل حقنا في المحل، ولا حين حرّض "غازي" والبلدية على فرش الخضار..صدقني يا "همام ".. هو يستحق القتل؛ لأنه لم يرحمنا وأيضًا بَخِلَ علينا برحمة الله.

نفث "همام" دخانه قائلًا بألمٍ:

- أنا أشعر بك يا صديقي، وأعلمُ ما تعانيه جيدًا ولكن..ولكن هناك حتما حلًّا آخر غير القتل..

حلًّا ينقذنا جميعًا مما نحن فيه و....

قاطعه "معتز" قائلًا بثورة:

- نعم يا "همام".. لا بد من حلٍّ.. الحياة أصبحت لا تُطاق.. أصبحنا لا نرى غير الهمِّ والأنين والبكاء.

حاول "همام" أن يُغير مجرى الحديث فنادى "حشيشة" قائلًا:

- أحجارك فقدت مفعولها يا "حشيشة"!

أقبل عليهما "حشيشة" وأخرج من جيبه قطعة حشيش طعّم بها الحجرين قائلًا وهو يبتسم ابتسامته البلهاء:

- لا يا أستاذ "همام".. أحجاري كما هي، ولكني أعلمُ أنكم لا تشربون إلا بالليل فقط.

تطلَّع همام إلى قطع النار الصغيرة التي يضعها "حشيشة" على الحجرين وقال شاردًا:

- وأين هو النهار يا "حشيشة"؟!

أراد "حشيشة" أن يتركهما يستمتعان بدخانهما الأزرق، ولكن "همام" استوقفه قائلًا:

- ما حكاية الموتى الذين يتجولون في بيتك الملعون يا "حشيشة"؟!

استدار "حشيشة" قائلًا:

- إشاعات يا أستاذ "همام".. إشاعات لا أعرف مصدرها.

ضحك "همام" قائلًا:

- ومَن يشهد للعروسة؟!

- لا.. والله يا أستاذ "همام".. إنه منزل جميل له واجهة عريضة تطل على الطريق السريع و...

قاطعه "معتز" قائلًا وقد استعاد بعض هدوئه:

- منزل جميل وسط المقابر والأموات؟!

- لا يا أستاذ "معتز".. إنـه في آخـر المقـابر، ولـيس في وسـطها... ولكني لا أعلم ماذا يحدث.. هذا رابع ساكن يترك البيت في هذه الـسنة لدرجة... لدرجة أنني بدأتُ أُصدِّق أن الموتى يتجولون فيه.

تطلع إليه "همام" و"معتز" لحظاتٍ في ذهول وفجأة..غرق الثلاثـة في الضحك..ضحك هيستيري!

***

(١٣)

انتزعت "عفاف" جسدها من بين أحضان "ناصر"، وهتفت بقلق وهي تنظر إلى ساعة الحائط:

- إن الساعة قاربت منتصف الليل وأخى أوشك على العودة.

التهم شفتيها في قُبلةٍ سريعةٍ وقال وهو يعدل ملابسه متجهًا للباب:

- لا تقلقي يا حبيبتي.. لا تقلقي.

استوقفته قائلة:

- "ناصر".. متى سنتزوج؟

التفت إليها وقال بلهجةٍ ماكرةٍ:

- قريبًا يا حبيبتي.. سأخبر أبي ونتزوج، لا تقلقي.

اقتربت منه وراحت تتحسَّس خده المكتنز بكفيها قائلة:

- "نـاصر".. يجـب أن نُـسرع بـالزواج.. وأنـت تعلـم الـسبب.. أرجوك.

احتواها بين ذراعيه في قُبلةٍ أخرى سريعة قائلًا:

- قلتُ لك لا تقلقي يـا حبيبتـي.. واتركينـي أغـادر الآن قبـل أن يعود "صلاح".

وتركها مُغادرًا الشقة وهـو يتلفـت حولـه حتـى اطمـأنَّ إلى خلـو الطريق، فمضى يشقُّ طريقه بجسده الضخم، في حين اضطجعت عفاف بظهرها على الحائط وراحت تتـذكر لحظـات المتعـة التـي عاشـتها بـين أحضان "ناصر" منذ لحظات..

كان بداخلها قلـق خفـي يـسيطر عليهـا ويعربـد في كيانهـا..كـان بداخلها إحساس قوي أن " ناصر" يتلاعب بها، ولكنها في الوقت نفسه لا تستطيع أن تتركه أو تبتعد عنه..وكيف بها أن تبعد وقد منحها الحيـاة من جديد..كان بالنسبة لها كقطرة ماء سـقطت عـلى أرض قاحلـة بعـد سنوات من الجفاف..ودبت فيها الحياة..

و.....

انتزعها من شرودهـا صـوت المفتـاح وهـو يـدور في بـاب الـشقة و"صلاح" يدلف إليها...

حاولت أن تتماسك وتخفي توترها قائلة لأخيها:

- أهلًا "صلاح".. هل أعدُّ لك العشاء؟

ابتسم قائلًا وهو يتطلع إلى عينيها بحنان أبوي بالغ:

- هذا لو كانت فاتنتي الجميلة ستأكل معي...

قاطعته قائلة محاولة الابتسام:

- لا تنسَ أني أختُك الكبيرة ثم..ثم إنني أشعرُ ببعض التعب، ولن أستطيع تناول العشاء معك.

هتف بقلق:

- أختي.. حبيبتي.. ممَّ تعانين.. أخبريني؟

- لا تقلق يا "صلاح".. إنه بعض البرد قد أصاب معدتي وغدًا أُشفى بإذن الله.. لا تقلق.

- وكيف لا أقلق يا حبيبتي.. وهل لي سواكِ أقلقُ عليه؟! فأنتِ كل شيء.. أنتِ الأخت والأمُّ والصاحب وكل شيء..وأنا لا أدري ماذا أفعل حين تتزوجين وأعيش وحيدًا.

هربت منه بعينيها قائلة:

- ومن قال إني سأتزوج قبلك؟ هل نسيتَ أنني أختك الكبيرة ولا بد أن أطمئنَّ عليك أولًا.

وفجأة...وضعتْ كفَّها على فمها وأسرعت إلى الحمام، وراحت تتقيَّأ بصوتٍ عالٍ وسط دهشة "صلاح"..

وفي الخارج كان قلب أخيها ينتفض من أجلها في قوة!

***

(١٤)

في وقت الظهيرة كان "السيد حبيب" يقف وسط الميدان في باب الخلق وأمامه ابنه الأوسط، وراح يهتف بصوت يقطُرُ ألمًا ومرارة:

- مَن منكم يشتري ابني.. إنني أعرضُ ابني للبيع.. إنه طفل نجيب ذكي و...

في تلك اللحظة هجمت عليه زوجته واختطفت ابنها مِن أمامه قائلةً وهي تصرخ:

- ماذا تفعل أيها المجنون؟! هل وصل بك الأمر لأن تبيع أولادك؟ لقد أصابك الجنون يا "سيد".. أصابك الجنون.

تجمَّع حولها أهل المنطقة وهتف المعلم "توفيق" صاحب المقهى:

- ليذهبْ كلٌّ منكم إلى حاله... هيا... ثم التفت إلى "السيد حبيب" وزوجته وقال لهما:

- هيا معي وكفاكما فضائح.

تَبِعَه "السيد حبيب" وزوجته إلى المقهى، وهناك هتف "السيد حبيب" في ألمٍ ومرارة لا مثيل لهما وهو يحتوي ابنه الأوسط بين ذراعيه:

- هل تظنونني بلا قلب؟ إنني لم أفعل ذلك حتى فاض بي الكيل، ولم يعد بيدي شيء أفعله..أصبحنا نعيش على صدقات أهل البر، ولم يعد لديَّ دخلٌ أعتمدُ عليه، والأسعار من حولنا في تزايُدٍ مستمر، ولا أحد يشعر بنا، وليس أمامي الآن إلا أن أحرق نفسي في ميدان عام لعلهم يشعرون بنا.

اقتربت منه زوجته وضمَّت رأسه بين ذراعيها وراحت تبكي في صمت، في حين تطلَّع إليه رواد المقهى في حزنٍ وأسى، فبدا لهم وهو يتطلعون إلى "السيد حبيب" وكأنهم ينظرون في المرآة..نعم.. فقد كان يعبر عن أحوالهم جميعًا ولا أحد يشعر بهم..أفاقوا من شرودهم على صوت المذيع في نشرة الأخبار بتلفاز المقهى وهو يقول:

"هذا وقد نبَّه السيد الرئيس على الحكومة بالعمل على ضرورة ضبط الأسعار والاهتمام بمحدودي الدخل"!

***

(١٥)

التصقت "سامية" أخت "عادل حشيشة" بـ "همام" عندما وصلوا للبيت المسكون الذي يملكه أخوها "عادل"، فربت على كتفها قائلًا وهو يضع المفتاح في باب البيت:

- لا تخافي شيئًا يا "سمسمة".. هل تصدقين أن الموتى يتجولون ليلًا بالبيت؟!

قالت له وهي تلتصق به أكثر وأكثر:

- أرجوك يا "همام".. لا تعد هذا الكلام على مسامعي مرة أخرى.

ضَحِكَ وهو يدفع الباب قائلًا:

- حسنًا.. حسنًا.. ولا داعي لكل هذا التوتر يا "سمسمة" أرجوكِ..أرجوكِ لا تُفسدي لحظاتنا الجميلة بهذا القلق؛ إنني اشتقتُ إليك كثيرًا.

تطلَّعت إليه قائلة وهي تتفحَّص جسده وقد استعادت بعض هدوئها:

- ولم تجد غير هذا البيت الملعون لتتقابل فيه؟!

- وأين نذهب يا حبيبتي؟ إن أمي أصبحت لا تغادر البيت ثم..ثم إن هذا البيت قريب من بيتكم و"عادل" لن يكتشف غيابك و...

قاطعته قائلة وعلى شفتيها ابتسامة وهي تتفحص جسده القوي مرة أخرى قبل أن تتَّجه للحمام:

- حسنًا... انتظرني قليلًا.

أخذَ يُتابع جسدها الذي يتلوَّى أمامه كحية رقطاء وهو يتناول إحدى سجائره المحشوة بالحشيش ويُشعلها وينفث دخانها في استمتاع ويهمهم بينه وبين نفسه ساخرًا:

- تُرى.. أين أنتم أيها الموتى؟! أم أنكم قد.....

وفجأة.. شقّ سكون الليل صرخةٌ قوية انطلقت من حنجرة "سامية"..

كانت الصرخة صورة مجسمة للرعب والهلع والفزع وهي تخرج من الحمام صارخة:

- رأيته يا "همام".... رأيته..

هتف "همام" بذهول:

- ماذا رأيتِ يا "سامية".. تكلمي..

استجمعت قواها ليخرج صوتُها من حلقها بصعوبةٍ قائلة بتلعثم:

- رأيتُ أحد الموتى بكفنه الأبيض وهو يفتح عليّ باب الحمام و...

- ماذا تقولين يا "سامية"؟! هل هذا معقول؟ إنها تخيُّلات.. تخيلات.

هتفت بحسمٍ وهي ترتدي ملابسها مرة أخرى:

- لا.. ليست تخيُّلات... هيا بنا.. هيا.

احتواها بين ذراعيه ليُهدِّئ من فزعها قائلًا:

- لا بأس يا حبيبتي... هيا بنا... هيا.

وغادر معها البيت وفي عقله ألف تساؤل وتساؤل!

***

(١٦)

بعد ساعة كاملة عاد "همام" مرة أخرى إلى البيت المسكون، ولكن بصحبة "معتز" هذه المرة..

فتحَ الباب بالمفتاح الذي نسيتْ "سامية" - في فزعها - أن تأخذه منه مرة أخرى، هتف به "معتز" وهو يخطو خلفه بحذر داخل البيت:

- أنا لا أدري سببًا لمجيئك هنا بعد كل ما سمعته.

أغلق "همام" الباب خلفهما في هدوء قائلًا:

- وهل تصدق مثل هذا الكلام يا "معتز"؟ هل تصدق أن الموتى يتجولون به حقًّا؟ هذا البيت به سِرٌّ، لا بد أن نعرفه.

- وماذا سنستفيد لو عرفنا سِرَّ هذا البيت؟

أخرج "همام" من جيبه سيجارتين مُطعمَّتين بالحشيش، وقال ضاحكًا وهو يناول "معتز" إحداهما:

- تعالَ واجلس يا صديقي وسأخبرك بكل شيء.

جلس "معتز" بجواره وأشعل سيجارته ونفث دخانها الأزرق و"همام" يهتف بصوتٍ منخفض:

- في الحقيقة يا "معتز" أنا لا أعرف لماذا أسعى لمعرفة سِرِّ هذا البيت ولكني.. ولكني لا أصدق أمر هؤلاء الموتى، كما أنهم أفسدوا لقائي الليلة بـ"سامية" و...

قاطعه "معتز" قائلًا:

- وموضوع "سامية" هذا أمر آخر، وأخشى أن يعرف بأمره "عادل حشيشة".

نفّث "همام" دخان سيجارته في تلذُّذ وقال وهو يتابع سُحب الدخان:

- وكيف سيعرف؟ إنني لا أقابلها إلا عندما نكون عنده بالغرزة، وأترككم عنده وأذهب للقائها ثم..ثم إنها تحتاجُ إليّ كما أحتاجُ إليها و.....

وفجأة توقَّف "همام" عن الكلام بسبب نظرات "معتز" التي تحجرت على شيء ما خلفه..

التفت "همام" فلمح أحد الموتى في كفنه الأبيض يخرج من الحمام ويتجه لإحدى الحجرات في خطوات متمهلة بطيئة، التصق "معتز" بالحائط قائلًا في رعبٍ:

- هل رأيتَ يا "همام"؟!

هتف "همام" بجمود وقد عقد حاجبيه:

- مستحيل.. مستحيل..

- هيا نخرج يا "همام"..

نهض "همام" من مكانه في غضب وهو يتناول عصا غليظة كانت ملقاة بجوار الحائط هاتفًا:

- ليس قبل أن نعرف السِّر.

وانطلق بعصاه الغليظة صوب باب الحجرة التي ولجها الشبحُ منذ لحظات..وفتح بابها في اللحظة نفسها التي كان فيها الشبح ذو الكفن الأبيض يستعدُّ للقفز من النافذة المطلة على الشارع الرئيسي..وقبل أن يقفز هوى "همام" بعصاه الغليظة على رأسه..ووقع الشبح أرضًا تحت قدميه..قدم "همام"!

***

(١٧)

عندما أفاق الشبح من غيبوبته وجد نفسه مُقيَّدًا بالحبال فوق مقعد ضخم وأمامه "همام" و"معتز" يُدخِّنان الحشيش ويتطلعان إليه في سخريةٍ، انتزع الشبح الملاءة البيضاء التي كانت تُغطي جسده ورأسه ورماها بعيدًا وهو يتطلع إليهما في رُعبٍ..

هتف "همام":

- مَن أنتَ؟ ولماذا تفعل ذلك؟

تطلَّع إليه الرجل ولم يرد فنهض "همام" من مكانه، وأخذ من سيجارته نفسًا عميقًا ثم هوى على وجهه بصفعةٍ هائلة صارخًا:

- تكلم.

مسح الرجل دماءه التي سالت على جانبي شفتيه إثر صفعة "همام" وقال في غضبٍ:

- ستدفع ثمن تلك الصفعة غاليًا... فأنا أحد رجال "سليمان الأنور"...

قاطعه "معتز" ذاهلًا وهو يبلع ريقه بصعوبة:

- "سليمان الأنور" ملك الجيارة ومجرى العيون ومصر القديمة!

في اللحظة نفسها التي تمالَكَ فيها "همام" نفسه من إثر المفاجأة، وقال وهو يرسم على شفتيه ابتسامة ساخرة وكفِّه تهوي بصفعةٍ أخرى على وجه الرجل:

- وأنا المقدم "أسامة الحديدي" بإدارة مكافحة المخدرات.

جاء دور الرجل ليبلع ريقه بصعوبة وهو يردد:

- مباحث؟!

رد " همام " وقد ازداد صوته قوة وصلابة حين رأي أثر كلماته علي الرجل:

- نعم... وستخبرنا بكل ما نريده وإلا سأحملك الأمر كله، فلا يوجد هنا ما يدين سليمان الأنور.

أخذ الرجل يتطلع إليه في ذعر في حين كان "معتز" يبتسم في داخله من جرأة "همام" الذي صرخ في تلك اللحظة في وجه الرجل بصرخة جمدت الدماءفي عروقه وهو يقول:

- تكلم.

هتف الرجل في توتر وقد انهار تمامًا:

- إنني أقوم بالدور الذي طلبه مني المعلم "سليمان الأنور" وهو إثارة الرعب والفزع في قلب كل من يسكنون هذا البيت وجعلهم يظنون أن الموتى يعيشون فيه و....

قاطعه "همام" بصرامة:

- ولماذا هذا البيت بالذات؟

هتف الرجل بعد تردد:

- لأن هذا البيت يعدُّ أكبر مخازن "سليمان الأنور"..

- هذا البيت؟!

- لا.. وإنما في سرداب أسفل هذا البيت..

هتف "معتز" في دهشة:

- مخازن.. سرداب.. وماذا تحوي تلك المخازن؟

رد "همام" ساخرًا:

- مخزنًا للمخدرات طبعًا.

رد عليهما الشبح:

- نعم للمخدرات.. المعلم "سليمان" أعد هذا السرداب أسفل البيت منذ سنوات ولجأ لحيلة الموتى هذه؛ ليجبر الناس على مغادرة البيت بلا عودة ويطمئن على بضاعته.

- ولماذا لا يبتاع هذا البيت بدلًا من كل ذلك؟

- لأنه لا يريد أن يكون المخزن باسمه.

سأله "معتز":

- وكيف يطمئن على بضاعته في هذا المكان؟

- إنه أفضل مكان ليطمئن فيه على بضاعته... بيت خال وسط المقابر يحرسه الموتى.

تطلَّع إليه "همام" لحظات وقد بدا عليه التفكير العميق، ثم ناوله منديلا قائلًا له وهو يفكُّ قيوده:

- حسنا.. امسح دماءك وأعرني أذنيك، فما سأقوله لك مهمٌّ جدًّا إن كنتَ تودُّ أن تكمل حياتك بين زوجتك وأولادك بعيدًا عن السجن و..

قاطعه الرجل في فرحة وقد دبَّ الأمل بداخله من جديد:

- أنا تحت أمرك.. تحت أمرك.

تطلَّع إليه "همام" وقد لمعت في عينيه ابتسامة..ابتسامة ماكرة!

***

(١٨)

في ذلك الصباح كان الصحفي الشاب "حاتم منير" يغادر منزله ويأخذ طريقه حيث موقف سيارات الأجرة.. وقبل أن يصل إليه بخطوات فوجئ بسيارة تقف أمامه وقد أحدثت عجلاتها صريرًا مزعجًا، وهبط منها ثلاثة رجال أشداء أحاطوا به... هتف بهم "حاتم" وكأنه اعتاد رؤيتهم:

- لا داعي للعنف... سآتي معكم.

وعلى الرغم من استسلامه لهم فقد حملوه ورموا بجسده في عنف وقسوة داخل السيارة التي انطلقت مسرعة..ولم يكن ما حدث الآن بغريب على "حاتم"..نعم.. فقد اعتاده منهم خاصة في السنوات الثلاث الأخيرة، حيث كانوا يأتونه في أي وقت من نهار أو ليل ويأخذونه عندهم ليظل عندهم يومًا أو يومين، ثم يتركونه، وبعد مُضي

ما يقرب من سبع دقائق توقفت السيارة في أحد الشوراع الخلفية وراء أحد المباني الضخمة، وقبل أن يُفتح باب السيارة عَصَبَ أحدهم عينيه وقاده إلى المبنى عبر باب صغير ومنه إلى طُرقة طويلة تنتهي بعدد من الحجرات التي بدت له وكأنها خالية من البشر نظرًا للصمت المُطبِق على المكان، وفي نهاية المطاف وجد نفسه داخل إحدى تلك الحجرات وقد أغلقوا بابها عليه وما زالت عيناه معصوبتين..

أخذ يتحسس مواضع قدمه بالحجرة فاكتشف أنها خالية من الأثاث إلا من مقعد خشبي صغير في منتصفها.. التقطت أنفه تلك الرائحة شِبه العفنة التي تنطلق من أرضية الحجرة الرطبة و....

- أهو أنتَ مرة أخرى؟

فوجئ "حاتم" بهذا الصوت المألوف له ينبعث من ركن الحجرة فهتف:

- أهلًا يا باشا... مضى شهران كاملان منذ لقائنا الأخير!

اقترب منه الرجل وحرَّر عينيه قائلًا ببرود:

- يبدو أنك لم تفهم نصيحتي لكَ في المرة السابقة.

فرك "حاتم" عينيه قائلًا وهو يتصنَّع الابتسام:

- لا.. بل يبدو أن سيادتك قد اشتقت إلى رؤيتي.

- صبري له حدود يا "حاتم".. ولو نفد فلن تغادر هذا المكان.

- بأي تهمة سيادتك؟

- التهم كثيرة.

- لقد فتش رجالك حقيبتي.

تطلَّع إليه الرجل وأشعل سيجاره في برود قائلًا وهو يخرج من جيبه ورقة فردها أمامه وراح يقرأ فيها: **عود كبريت** لكلِّ مَن سُلِبَ حقه..

عود كبريت لكلِّ مَن باع كليته أو كبده أو جسده..

عود كبريت لكلِّ مَن وقف في طابور التعيين ولم يُصِبه الدور..

عود كبريت لكلِّ مَن وقف في طابور العيش فلقي مصرعه..

عود كبريت لكلِّ مَن وقف في طابور أنابيب البوتاجاز فمات قبل أن يحملها..

عود كبريت لكلِّ مَن ترمَّلت فلم تجد ما يعينها على حياة الموتى سوى المذلة والهوان..

عود كبريت لكلِّ مَن انتظرت ابن الحلال فلم يأتها إلا الوهن في عينيها والشيب في شعرها والانحناء في ظهرها..

عود كبريت لكلِّ طفلٍ من أطفال الشوارع لم يجد مأكلًا إلا ما خَّلفته القطط والكلاب من القمامة..

عود كبريت لكلِّ فتاةٍ أُجبرت على التعهر لتكسب قوت يومها وتجد ما يستر أبناءها وأخواتها

عود كبريت لكلِّ شابٍّ انتظر فتاة الأحلام فلم يرها حتى في الأحلام..

عود كبريت لكلِّ مَن جَدَّ واجتهد وجاء ابن لكبير فسرق اجتهاده.

توقَّف الرجل عن القراءة وراح يطوي الورقة مرة أخرى قائلًا لحاتم:

- أليس هذا كلامك الذي يملأ المواقع الإلكترونية والفيس بوك؟

ردّ عليه "حاتم" مبتسما في مرارة:

- وماذا أفعل بعد أن أغلقوا في وجهي جميع الصحف الحكومية وحتى المعارضة؟

لوّح الرجل بالورقة التي تحوي المقال في وجهه قائلًا:

- بهذا المقال من الممكن أن أوجه لكَ أسوأ تهمة يمكن أن يواجهها إنسان!

- أسوأ تهمة؟!

- نعم.. قلب نظام الحكم.

ضحك "حاتم" قائلًا:

– هذا صحيح يا باشا ولكن..ولكن بشرط أن تجد مـادة بالقـانون تُجرم حرية الرأي... وهذا رأيي.

– وإذا كان كلامك وآراؤك يؤثران في الناس؟

– آرائي وكلامي على المواقع أمام جميع الناس ومـن شـاء فليـؤمن ومن شاء فليكفر.

تطلع إليه الرجل في صمت من خلف دخان سيجارته في حين كان "حاتم" يستطرد في ثقة:

– صدقني يا سيدي..لقد تغير الزمن وتغيرت معه الناس..وزادت طموحاتهم.. واتسع أُفقهم..وأصـبحوا الآن يفهمـون الكثـير..الكثـير جدًّا!

***

(١٩)

أطلت "عفاف" برأسها من نافذة شقتها بعد منتصف الليل، وهتفت بـ "ناصر" الذي ظهر قُرب مدخل البيت بجسده الضخم:

- أسرع.. أسرع قبل أن يراكَ أحد.

هَرولَ بجسدِه الضخم وعَبَرَ مدخل البيت ومنه إلى شقة "عفاف"..وما إن وَطِئ بقدمه الشقة حتى هوت على رأسه من الخلف ضربة قوية هوى على إثرها أرضًا وقد فَقَدَ وعيه، ومن خلفه ظهر "صلاح" وبيده عصا غليظة وفي عينيه غضبٌ مخيف..

تطلَّع إلى جسد "ناصر غازي" الضخم الذي تكوّم على أرضية الصالة ونظر إلى أخته التي تجمدت دموع القهر والذل في عينيها وقال بجمود:

- هناك حبل فوق الفراش بحجرتي.

أسرعتْ وأحضرتْ الحبلَ وناولته إياه، فقام بربط "ناصر" جيدًا من يديه وقدميه، ثم اتَّجه إلى المطبخ وأحضر سكينًا حادًّا وأخته تتابعه بعينين جاحظتين جامدتين وكأنهما فقدتا كل أثر للحياة..

يتناول "صلاح" مقعدًا صغيرًا ويجلس عليه أمام "ناصر" - الذي بدأ يستعيد وعيه في بطء – وهو يشعل إحدى سجائره وعيناه تتطلعان من خلف سحب الدخان إلى نصل السكين الحاد في جنون..

يرفع كفه ويهوي بها على وجه "ناصر" المكتنز بصفعة هائلة الذي استعاد وعيه والرعب والهلع يسيطران على كل ذرة في كيانه وهو يتطلع إلى صلاح وإلى السكين..

هتف "ناصر" بحروف متعثرة:

- أرجوك... يا "صلاح"..أرجوك، لا تصدق ما سمعته، أنا لم ألمس أختك، أنا بريء.. بريء و.....

احتبست بقية الحروف داخل حلقِه إثر صفعةٍ أخرى هوت على خَدِّه من "صلاح" وقد راح يلوّح بنصل السكين الحاد أمام وجهه وفي عينيه بريق جنوني عجيب... فانتفضت كل خلية في جسده وهو يستطرد:

- لا يا "صلاح".. لا.. أنا كذاب.. كذاب، أنا على علاقة بأختك، وهي حامل مني، وسأتزوجها.. سأتزوجها، أقسم لك.. أقسم..

اقتربَ منه "صلاح" وقد ازداد جحـوظ عينيـه، في حـين تحـررت عينا أخته من جمودهما وانهمرت منهما الدموع في صمت، أما "صـلاح" فقد قبض بيديه على كَفِّ "ناصر" المكتنزة ووضـع نـصل سـكينه فـوق شرايين يده اليمنى وهو يصرخ في رعب:

- أرجوك يا "صلاح"... سأتزوجها... سأتزوجها.

على شفتي "صلاح" ارتسمت ابتسامةٌ مريرةٌ وهو يغرز سِنَّ سكينه في يد "ناصر" ويقطع شرايين يـده اليمنـى التـي انهمـرت منهـا دمـاؤه النجسة تسيل على أرضية الصالة وقد ارتعدت أوصاله بشدة..

ظَلَّ صلاح يتابع الدماء التي تسيل والسكين في يده، وألقـى نظـرة أخرى على أخته "عفاف" التي تكوّمت بجوار الحائط ودموعها تنهمـر في صمت ومن عينيه سقطت دمعة..

نعم.. دمعة واحدة ساخنة سالت على خده وهو يمـدُّ كفَّـه لأختـه التي اقتربت منه وكل جزء في جسدها يرتعد، وتناول كفَّها التـي ترتعـد بأصابعه، ثم جذب جسدها إليـه في اللحظـة نفـسها التـي سـقط فيهـا السكين من يده، واحتوى جسدها بين ذراعيـه وراح يُملـس بيـده عـلي شعرها في حنان أبوي عجيب..وفي تلك اللحظة تحولت دمعته الوحيدة إلى شلال..شلال من الدموع!!

***

(٢٠)

غادرت عربات الشرطة المنطقة بعد أن داهمت منزل عادل حشيشة الكائن بأطراف المقابر وصادرت مخزن المخدرات التابع للمعلم "سليمان الأنور" بعدما نجح "همام" ومعتز في إقناع الرجل بضرورة الإبلاغ عن مخزن المخدرات وإلا أُعتبر مشاركًا للأنور في تجارة المخدرات واستجاب لهما الرجل..

ومع آخر عربة للشرطة تغادر المكان ظهر "همام" قائلًا لمعتز في فرحة:

- ضربة معلم يا "معتز".. لقد نجحنا في تطهير البيت من الموتى والمخدرات في آنٍ واحد.

شاركه "معتز" ابتسامته قائلًا وهو يدعوه لمغادرة المنطقة:

- ما يُحيِّرني هو: لماذا يا "همام".. لماذا؟

علت ضحكة وجه "همام" وهو يقول:

- هل تصدقني يا "معتز" لو قلتُ لكَ إنني لا أعرف لماذا فعلنا ذلك.

وصمتَ قليلًا استطرد بعدها ضاحكًا وهو يقول:

- المهم أنني لن أجد مَن يُعكِّر لقائي بسامية بعد الآن.

في تلك اللحظة يُشيرُ "همام" لإحدى سيارات الأجرة ويركبها مع "معتز" وهو يستطرد وقد استعادت ملامحه جديتها:

- ولكن تأكَّد يا معتز.. تأكد أنه حتمًا هناك حكمة وراء ما حدث الليلة..نعم.. حكمة نجهلها اليوم..ولكن من المؤكَّد أننا سنعلمها غدًا!

***

(٢١)

تجمَّع الأصدقاء – عدا صلاح – في بيت "كمال" الذي عاد من السفر منذ خمسة أيام وأصابه الغضب والحزن والاكتئاب حين علم بأمر زواج "فاتن" بالشاب الثري العربي، وقبع في بيته رافضًا الخروج أو مقابلة أحد...وحين جمعته حجرته الخاصة مع أصدقائه هتف "معتز" وهو يتطلع لملابسه غير المهندمة وإلى لحيته التي طالت:

– ما كل هذا يا "كمال"؟! إن الحياة لم تنتهِ لمجرد أنكَ فقدتَ حبيبتك.

التقط "رءوف" طرف الحديث واستطرد قائلًا:

– نعم يا "كمال".. إننا شباب والعمر أمامنا طويل.

جاهَدَ "كمال" ليخرج صوته من حلقه بصعوبة وهو يقول:

– والغربة يا رفاق؟! الغربة مُرّة ، صعبة جدًّا، رأيت فيها الأهوال، عرفتُ معنى الذل، وكان... وكان حب "فاتن" هو عزائي الوحيد و..

قاطعه "رءوف" قائلًا بألمٍ:

– الذُّل الـذي تتحـدث عنـه لـيس في الغربـة وحـدها يـا " كـمال "..نحن أيضا رأينا الذل..والذل عنـدما تـراه في بلـدك ووسـط أهلـك يكون أشد وألعن.

التقط منه "معتز" طرف الحديث مستطردًا:

– نعم يا "كمال".. رءوف على حق، نحن أيضًا رأينا الذل، لقد زج "عزمي حافظ" بعم "صابر" والـد "رءوف" في الـسجن لأنـه رفـض مشاركته أعماله غير المشروعة و... وعمي... عمي أخو والدي الـشقيق استولى على المحل مصدر رزقنـا الوحيـد وادعـى كـذبًا وزورًا أن أبي لم يسدد له ديونه قبل موته و...

قاطعه "كمال" وقد قبض بكلتا يديه على رأسه وهتف بمرارة:

– كفى.. كفى.. أرجوكم.. ما الذي يحدث في البلد؟ بل ما الـذي يحدث للبشر؟ إن الحياة بهذا الشكل لا يمكن أن تطاق.

رد "همام" – الذي كان يتابع حـوارهم منـذ البدايـة في صـمت – قائلًا:

– نعم يـا "كـمال".. أصـبحنا لا نـستطيع أن نحقـق حتـى أبـسط أحلامنا.

وصمت لحظة برقت خلالها عيناه ببريق غاضب مخيف وهو يستطرد:

- أشعر كأننا أصبحنا كالدمى في أيدي أناس لا يعرفون معنى للرحمة أو الشفقة.

تخللت أصابع "كمال" شعره الناعم المتهدل على جبينه وهو يردد في خفوت وكأنه يحدث نفسه:

- خمس سنوات كاملة من الذل والإهانة..خمس سنوات ذُقتُ فيها الأمرين..وكلما كانت الغربة تشتدُّ بقسوتها عليَّ كنتُ أتذكرها..أتذكَّر "فاتن" ، أتذكَّر حبها لي وحبي لها، وأتحمَّل وأتحمَّل من أجلها، وها أنا قد عدتُ..ولكن أين هي الآن؟! وماذا جنيتُ أنا مِن الغربة ومرارتها؟ هل تعلمون ماذا جنيتُ؟! لم أجنِ سوى تلك السيارة التي تقبع كالجثة الهامدة أمام البيت و..

وصمت فجأة عن الكلام وهو يحاول السيطرة عبثًا على دمعة ساخنة هزمته وسالت على خده فمسحها وهو يستطرد بصوتٍ يقطُر ألمًا:

- في آخر اتصال بيننا كانت فاتن معترضة على شراء السيارة الآن، ولكنني أقنعتُها بأنها ستساعدنا على المعيشة بعد الزواج، وعلى زيادة دخلنا، فاقتنعت وكانت سعيدة جدًّا.

نهض "معتز" مُتصنِّعًا المرح وقال مربتًا على كتف "كمال":

- هيا انهض يا صديقي واستبدل ملابسك فهناك صديق يودُّ رؤيتك الآن.

تطلع إليه "كمال" متسائلًا وقال:

- أتقصد "صلاح"؟

ضحك "همام" هو الآخر قائلًا:

- "صلاح" بالطبع يودُّ رؤيتك.. ولكننا نقصد "عادل"... "عادل حشيشة" يا كمال.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتي "كمال" وهمّ بالنهوض في اللحظة نفسها التي رنّ فيها هاتف "رءوف" الذي تناوله واستمع لمحدثه لحظةً هتفَ بعدها في هلع:

- لـ.. لقد سقط أبي بالمقهى وتم نقله إلى المستشفى.

وانطلق خارجًا ومن ورائه الأصدقاء.

***

(٢٢)

نفث المعلم "توفيق" دخان شيشته بقوة وهو يهتف بغضب:

- سبحان الله! الرجل كانت صحته على ما يُرام حين جاء هذا الصباح.

هتف "أحمد راغب" قائلًا وهو يتطلع شَزَرًا لعزمي حافظ الذي يجلس على باب المقهى يدخن سيجارته وقد وضع ساقًا على أخرى:

- يمهل ولا يهمل.

في تلك اللحظة يدخل "السيد حبيب" ويتناول الشاي بالحليب الذي أعده له عامل المقهى حين رآه - تبعا للفرمان الذي أصدره لهم المعلم "توفيق" بأن السيد حبيب له يوميًّا اصطباحة على حساب المحل - فأخذه وانتقى لنفسه أحد أركان المقهى وجلس يتابع رواد المقهى في صمت، في حين كان المعلم "توفيق" يقول في غيظ وهو يجزُّ على أسنانه:

- مـا يُـصيبني بـالجنون هـو لمـاذا؟! الرجـل كـان بـصحة جيـدة وفجأة..وفجأة وجدناه يقع أرضًا ويلتقط أنفاسه بصعوبة.

"عزمي حافظ " يتابع الحـوار وكـأن الأمـر لا يعنيـه وهـو يـشعل سيجارة أخرى هاتفًا:

- الشاي المخصوص يا "زيزو".

يتطلع إليه "زيزو" بضيق ثم يتركه ويتجه لخارج المقهى، ثـم يعـود ليهمس في أذن المعلم "توفيق" قائلًا:

- الست أم "فاتن" تنتظرك بالخارج يا معلم.

يـنهض المعلـم "توفيـق" بجـسده الـضخم ويتوجَّـه إليهـا قـائلًا بترحاب:

- أهلًا بالست أم "فاتن".. أهلًا.

هتفت أم "فاتن" بارتباك:

- في الحقيقـة أنـا في مـشكلة يـا معلـم ولم أجـد غـيرك و... قاطعها المعلم "توفيق" قائلًا وهو يأخذ مقعـدين عـلى جانـب الطريـق بعيدًا عن المقهى وقال:

- إن زوجك الأستاذ "رشاد".. رَحِمَه اللهُ، أخ وصاحب فضل عليّ وهوالـذي ربَّـى أولادي وعلمهـم... فـلا تقـولي مثـل هـذا الكـلام وأخبريني... ماذا حدث؟

هتفت أم "فاتن" في توتر:

- "فاتن"..

قاطعها المعلم "توفيق" قائلًا:

- ألم تتزوج وتسافر مع زوجها الشاب العربي؟

تضاعَفَ القلق في عيني الأم وقالت:

- نعم يا معلم.. وهذا آخر ما أعلمه عنها...

فمنذ أن تزوجت وسافرت وأنا أحاول الاتصال بها أو بزوجها بلا فائدة... هاتفها دائمًا مغلق وكذلك هاتف زوجها..

قاطعها المعلم "توفيق" قائلًا:

- من الممكن أن يكون بالشبكة عيب أو أنها فقدت هاتفها أو...

تنهدت الأم في ألمٍ وقالت:

- هذا ما كنتُ أقوله لنفسي طوال الفترة الماضية ولكن إذا عجزتُ أنا عن الاتصال بها فلماذا لم تحاول هي الاتصال بي والاطمئنان عليَّ..

انفلتت من عينيها دمعة حاولت إخفاءها بسرعة وهي تستطرد:

- في الحقيقة يا معلم أنا بدأت أشعر بالقلق.. ولم أجد أمامي غيرك.

تراجع المعلم "توفيق" بظهره على مقعده وصمت لحظاتٍ قال بعدها:

- لا تقلقي، وإن شاء الله خير بإذن الله، سأتصل الآن بابن الحاج "قدري" فهو يعمل في الخارجية وسوف يدلنا على أفضل طريقة للاطمئنان عليها.

تركته أم "فاتن" شاكرةً وعاد هو إلى المقهى وفوجئ بالمعلم "غازي" يدخل المقهى بعينين زائغتين وهو يتفحص وجوه الزبائن، وبيده عصاه التي لا تفارقه، ولكنه كان لا يضرب بها على كفِّه الأخرى كعادته... اقترب منه "غازي" في خطوات مرتبكة وسأله:

- ألم تَرَ ابني "ناصر" يا معلم؟

نحّا المعلم "توفيق" الشيشة جانبًا وهو يجلس على مقعده قائلًا:

- لا يا معلم... لم أرَهُ منذ ثلاثة أيام أو أربعةٍ.. ماذا حدث؟

رد "غازي" بصوت متلعثم وحروف متوترة بدت غريبة على آذان رواد المقهى، وعيناه ما زالتا تتفحصان وجوه الزبائن:

- ابني يا معلم "توفيق".. ابني "ناصر".. غائب عن البيت منذ يومين ولا أدري أين ذهب.

تطلَّع إليه رواد المقهى مستمتعين بحالته تلك وتشاغَلَ كلٌّ منهم بحاله، ولم يكلف أحدهم نفسه أن يواسيه بكلمة أو حركة..نعم فقد كانوا جميعًا سعداء بالحالة التي يرون "غازي" عليها..فكثيرًا ما ظلم وأهان وسرق واغتصب..ظل "غازي" يتطلع لوجوههم لحظاتٍ قبل

أن يُغادر المقهى ويقف على بابها يتلفت يمينًا ويسارًا وعيناه حائرتان على الطريق..وعيون رواد المقهى تراقبه في تشفٍّ وقلوبهم تهتف:

- "وما ربك بظلام للعبيد".

***

(٢٣)

- "ارتفاع مفاجئ للضغط مع جلطة بالقلب، ولكن الحمد لله تمكنا من تذويب الجلطة، ولكنه سيبقى تحت الملاحظة يومين أوثلاثة".

هتف طبيب المستشفى بتلك العبارة في وجه "رءوف" وأصدقائه الذين رافقوه إلى المستشفى، ترك "رءوف" جسده يهوي بجوار الحائط بعد أن عجزت قدماه عن حمله وهو يردد:

- الحمد لله.. الحمد لله.

اقتربت منهم الممرضة وتفحصت وجوههم هاتفةً:

- مَن منكم "رءوف"؟

- أنا.

- عم "صابر" يودُّ رؤيتك ولكن لا تجهده.

هرول "رءوف" إلى داخل الغرفة فوجد جسد والده مُسجًّى فوق الفراش وقد اتصلت به الأجهزة، هتف من بين دموعه وهو يلتقط كفَّ والده:

- أبي.. أأنتَ بخير؟

هتف عم "صابر" بخفوت شديد:

- لا تقلق يا ولدي.. أنا بخير.

قبّلَ "رءوف" كفَّ والده وهو يهتف:

- ماذا حدث يا أبي؟

جاهَدَ الرجلُ ليقول بصعوبةٍ:

- ذهبتُ أتوسَّل لـ "عزمي حافظ" وأطلب عفوه كي يتنازل، ولكنه رفضَ وأهانني وقال إن أمثالي لا مكان لهم إلا السجن.. السجن يا "رءوف".

صرخ "رءوف" بغضب:

- مستحيل... إنه لا يمكن أن يكون إنسانًا.. إنه حيوان.. حيوان.

هَجَمَ عليه أصدقاؤه يسبقهم الطبيب والممرضة وحملوه خارجًا وهو يردد:

- حيوان... حيوان.

***

(٢٤)

كانت من المرات النادرة التي يـذهبون فيهـا نهـارًا لغـرزة "عـادل حشيشة"، حيث فوجئ بهم يدخلون عليه في الثانية ظهرًا، وقـد اتخـذوا أماكنهم فوق الدكة الخراسانية المجاورة للحائط، اقـترب مـنهم مُرحِّبًـا وعلى شفتيه ابتسامته البلهاء التي لا تفارقه وهو يُـوزِّع عـلى كـلٍّ مـنهم النارجيلـة الخاصـة بـه، الـتقط "همـام" نارجيلتـه وراح ينفـث دخانهـا الأزرق قائلًا لكمال:

- أخبرني يا "أبو كمال".. هل رأيت هذا الذل بالغربة؟

تطلـع إليـه "كـمال" في صـمتٍ ولم يـرد في حـين هتـفَ "عـادل حشيشة":

- الأستاذ "صلاح" كان هنا بمفـرده منـذ سـاعة، وكـان يبـدو في حالة غير طبيعية.

هتفَ "معتز":

- "صلاح"؟! ومنذ متى يأتي أحدُنا إلى هنا بمفرده؟

ردَّ "همام" من بين سحب دخانه:

- إن "صلاح" مختفٍ منذ يومين ولا نعرف عنه شيئًا.

تناول "رءوف" هاتفه وهو يقول:

- بالأمس اتصلتُ به ولم يرد وحين ذهبت لشقته وجدتُها خالية مغلقة النوافذ ولا أحد يرد.

ثم صمت "رءوف" لحظةً أجرى فيها اتصالًا بصلاح وهتف عبر الهاتف:

- "صلاح"! أين أنتَ؟

استمع إليه لحظةً أخرى أغلق بعدها هاتفه وهو يقول لهم بصوتٍ متوتر:

- إنه يودُّ رؤيتنا الآن في شقته و... ويبدو غير طبيعي... غير طبيعي على الإطلاق.

***

(٢٥)

ألجمت الصدمة ألسنتهم جميعًا وهم يتطلعون لجثة "ناصر" الملقاة على ظهرها في الصالة، غارقة فوق بحيرة من الدماء و مقيدة اليدين والقدمين...

بنظرات يملؤها الهلع والفزع تطلع الأصدقاء إلى جثة "ناصر" ثم تطلعوا إلى "صلاح" الذي فتح لهم الباب بنظرات جامدة خاوية من أي تعبير، ثم عاد إلى مكانه على المقعد الخشبي المُواجِّه للجثة..

جفت حلوقهم جميعًا وقد التصق رءوف بالحائط في رعب، في حين جحظت عينا "كمال" في ذهول غير مُصدِّق ما تراه عيناه، وهمام الذي أخذ ينقل نظراته بين "صلاح" والجثة في جمود، أما "معتز" فقد خرجت الحروف من بين أسنانه متلعثمة وهو يسأل صلاح:

- ما.. ما هذا؟ ماذا فعلت يا "صلاح"؟

رد "صلاح" بجمود:

- كم كنتُ أتمنى أن أقتله بدل المرة ألف مرة! فأمثاله لا يستحقون الحياة.. لا يستحقون.. هل تسمعون؟!

حاول " كمال " أن يتمالك نفسه وهو يربت على كتفه قائلًا:

- اهدأ يا " صلاح ".. اهدأ وأخبرنا ماذا حدث؟

هتف "صلاح" وقد جحظت عيناه في جنون عجيب:

- ألا تعلمون ما حدث؟ ما حدث أمام عيونكم..

جثة "ناصر غازي" وقد فقدت دماءها قطرةً قطرة و...

قاطعه "همام" سائلًا وهو يتلفت حوله:

- أين أختك يا "صلاح"؟

رد "صلاح" بفزع:

- أختي! لماذا؟

نهض "همام" من مكانه وهو يكرر سؤاله:

- أين أختك "عفاف" يا صلاح؟

ارتعدت أطراف "صلاح" وقد تضاعف توتره وأخذ يردد:

- "عفاف" ليست هنا.. ولا شأن لها بما حدث.. هل تسمعون؟ لا شأن لها.

اقترب منه "رءوف" واحتواه بين ذراعيه في إشفاقٍ قائلًا وهو يربت على كتفه:

- اهدأ يا " صلاح ".. اهدأ أرجوك.

هتف "معتز" وهو يتناول كَفَّ "صلاح":

- هيا بنا نترك الصالة وندخل حجرتك لتستعيد هدوءك بعيدًا عن تلك الجثة ولتقصَّ علينا كل شيء.

نهض معهم "صلاح" وكأنه مسلوب الإرادة، ودخل بهم إلى حجرته وألقى جسده المنهك فوق فراشه في إعياء شديد، جلس بجواره "همام" على طرف الفراش وقال له:

- "صلاح".. اسمعني جيدًا.. إنك لم تتصل بنا لنبكي بجوارك هنا أمام الجثة..ولكنك اتصلت بنا لنجد لك مخرجًا ونساعدك على التخلُّص من تلك الجثة.

صمتَ "همام" لحظاتٍ تطلَّع فيها لوجه "صلاح" الغارق في بحر من التوتر الخوف، ثم استطرد قائلًا:

- ولكي يحدث ذلك يجب أن تخبرنا بكل شيء.. هل تسمع؟ كل شيء.

صمت "صلاح" لحظات بعد عبارة همام ثم هتفَ:

- أنتم على حق.. سأحكي لكم كل شيء.. وبدأ يروي.

أتمَّ "صلاح" روايته وتطلع لأصدقائه فوجد صدورهم تعلو وتهبط في غضبٍ وفي عيونهم بريق مُخيف وبداخلهم ثورة غضب تعصف بكيانهم كله... هتف "معتز":

- وأين "عفاف"؟

- تركتها تسافر عند قريبة لنا في طنطا حتى أتصرف.

تطلع "كمال" إلى الصالة حيث توجد الجثة وهتف:

- والآن.... كيف سنتصرف؟

هتف "رءوف":

- إن "غازي" يبحث عن ابنه في كل مكان كالمجنون.

نهض "همام" من مكانه وتطلع لوجوههم ثم قال:

- أولًا علينا أن نتخلص من أي آثار للدماء بالشقة.

وصمتَ قليلًا ثم استطرد قائلًا:

- وبعدها سأخبركم ما سنفعله.

واندفعوا في حماسةٍ يزيلون آثار الدماء في نفس اللحظة التي انبعث فيها صوت المؤذن في المسجد المجاور وهو يؤذن لصلاة المغرب.

***

(٢٦)

قُبيل الفجر بساعة كان الأصدقاء قد تخصلوا من آثار للدماء، ثم ربطوا الجثة ولفوها جيدًا في ملاءة وبعد ذلك لفوها في سجادة وربطوها بإحكام، وحين عاد إليهم "رءوف" – وكان قد استأذنهم ليطمئنَّ على أبيه بالمستشفى – تركهم "كمال" دقائق ذهب فيها لإحضار سيارته الجديدة من أمام بيته..

تعاون الأصدقاء جميعًا – بعدما تيقنوا من خلو الطريق في هذا الوقت المتأخر – على حمل الجثة إلى حقيبة السيارة التي انطلقت بهم إلى ميدان السيدة عائشة ومنه إلى الإمام الشافعي وتوقفت أمام البيت المسكون الذي يقبع في آخر المقابر بعدما أقنعهم "همام" أن أفضل مكان لإخفاء الجثة هو ذلك البيت المسكون الذي ينفر منه كل الناس ويخشون مجرد الاقتراب منه..

ما إن توقفت السيارة حتى أسرع "همام" وفتح الباب بالمفتاح الذي ما زال محتفظًا به ولم يُعِدْهُ لسامية مرة أخرى، تعاونوا على حمل الجثة، وألقوها في صالة البيت الواسعة، وارتمت أجسادهم حولها يلتقطون أنفاسهم وبعدها بلحظات هتف "همام":

- عليك الآن يا "كمال" أن تعود بسيارتك مرة أخرى ليستيقظ الجميع ويجدوا السيارة مكانها، بلع "كمال" ريقه وأشعل إحدى سجائره ثم تركهم وأغلق الباب خلفه..

"معتز" يربت على كتف "صلاح" الذي ما زالت ملامحه شاحبة، وقال له وهو يشعل له إحدى سجائره:

- لا تقلق يا صديقي.. لقد انتهى كل شيء.

بعد ذلك ألقوا نظرة أخيرة على الجثة، ثم اتجهوا للسرداب ومعهم الفأس القديمة التي كانت ملقاة في أحد الأركان، وأعدوا حفرة واسعة تليق بذلك الناصر..ناصر غازي!

***

(٢٧)

مرة أخرى جمعهم البيت المسكون ليلًا بعد يومين من دفنهم لناصر غازي في سرداب البيت، اتخذوا أماكنهم أرضًا في صالة البيت، وقد اضطجعوا بظهورهم على الحائط وهم يشعلون سجائرهم المُطعَّمة بالحشيش... من بين دخان سيجارته هتف "رءوف":

- مَنْ كان يتخيل أن نفعل ما فعلنا؟!

هتف "معتز":

- معك كل الحق يا صديقي..إنني كنتُ أتحاشى أن تقع عيناي في عين "ناصر غازي" فإذا بي أحمله معكم وندفنه هنا!

ردد "صلاح" بضيق:

- دعونا ننسَ هذا الموضوع ولا نُكرِّره مرة أخرى.

هتف "كمال" بمرارة:

- وأنا مِن يومها أسأل نفسي عن سبب عودتي من السفر..

نعم يا رفاق.. كم أتمنى أن أسافر مرة أخرى ولا أعود أبدًا.

تنَّهد "معتز" في مرارة قائلًا:

- هل تعلمون يا رفاق أنني لو حدث وتزوجت وأنجبتُ ولدًا فلن أحكي له شيئًا عن هذا البلد.

ابتسم "صلاح" قائلًا:

- وأنا..أنا على أتم الاستعداد للتعاون مع أي دولة أشعر فيها بآدميتي حتى ولو كانت معادية.

قبض "رءوف" على رأسه بكلتا يديه هاتفًا في ألم:

- وماذا بعد يا رفاق.. كيف نواصل حياتنا وقد سيطر علينا اليأس والإحباط بهذه الصورة؟!

لا بد من حلٍّ.. لا بد و....

قاطعه "همام" بجمود - بعد صمت طويل - قائلًا:

- الحل في النبوت.

ردَّد الأربعة في دهشة:

- النَّبوت!

نفث "همام" دخان سيجارته ثم قال:

- نعم يا رفاق.. الحل في النبوت.. ما أُخذ بالقوة لا يستردُّ إلا بالقوة.. إلا بالنبوت..النبوت الذي سيساعدنا على اتخاذ القرار.

هتفَ "صلاح" بدهشة:

- ماذا تعني يا "همام"؟ وأي قرار تقصد؟

تطلع إليهم لحظاتٍ نهض بعدها واقفًا وهو يستطرد في صوتٍ عميق:

- قرار تحقيق العدل..

العدل يا رفاق..

العدل الذي فشل قانوننا عن تحقيقه..

العدل الذي سنعيد به الحقوق لأصحابها..

العدل الذي سنقتص به من أمثال عمك يا معتز وغازي وعزمي حافظ وغيرهم..

العدل الذي سنعيد به الأمور لمجراها الطبيعي.

وصمت لحظة برقت فيها عيناه ببريق عجيب وهويستطرد:

- نعم..نعم يا رفاق..إننا منذ هذه اللحظة سنكون أنصار العدل..أنصار لكل مظلوم..سنحارب كل باغٍ..سنقتص من كل ظالم..

قاطعه "معتز" قائلًا بسخرية وهو يجذبه أرضًا:

- اهدأ يا "همام" وأخبرنا... كيف سنحقق كل ذلك؟

شرد "كمال" بنظره بعيدًا وهويردد:

- العدل.. إنه حلمنا جميعًا.. ولكن كيف؟ كيف يتحقق يا "همام"؟

أشعل "همام" سيجارة أخرى نفث دخانها في قوة وهو يقول والبريق الجنوني قد تضاعف في عينيه مراتٍ ومرات:

- سنجعل من هذا البيت مقبرة لكل ظالم..نعم.. كُلُّ مَن تجرأ علينا وظلمنا وسلب حقنا سندفنه هنا.. هنا في هذا البيت.

يضع " رءوف " كفَّيه أمام وجهه قائلًا:

- لا يا "همام" لا.. أنا لا أتخيل نفسي قاتلًا و..

قاطعه "همام" ضاحكًا في جنون:

- ماذا يا "رءوف"؟! لا تتخَّيل ماذا؟ أنسيتَ ما فعلناه؟ أنسيتَ جثة "ناصر غازي" التي دفناها هنا..هنا في سرداب هذا البيت و...

وفجأة..انطلقت تلك الصرخة..صرخة قوية انطلقت من خلف باب الحجرة المجاورة لهم..

صرخة أنثوية زلزلت كيانهم وبثت الرعب في قلوبهم..

ثم ظهرت "سامية" من خلف باب الحجرة وهي تتطلع إليهم في ذهول غير مُصدِّقة ما رأته بعينيها وسمعته بأذنيها..

نهض الأصدقاء الخمسة من أماكنهم، وراحوا يتطلعون إليها وقد سقطت قلوبهم بين أقدامهم، وكان "همام" أول مَن استعاد سيطرته على نفسه فقال لها:

- "سامية"! ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟

ضحكت "سامية" قائلة:

- هذا بيتنا يا "همام".. بيت أخي وأنا أسألكم: لماذا جئتم هنا؟ وكيف؟

قال "همام" مرتبكًا:

- أحيانًا كنا نحتاج مكانًا نشرب فيه سيجارة أو سيجارتين فصنعتُ نسخة للمفتاح و..

خلعت "سامية" الشال الأسود من فوق كتفيها وألقته فوق أحد المقاعد الذي جلست عليه قائلة بسخرية:

- ماذا تقول يا "همام"؟! سيجارة أو سيجارتين؟! وماذا عمَّا سمعته منكم الآن؟

هتف "رءوف" بهلع:

- وماذا سمعتِ؟

تطلعت إلى وجوههم الشاحبة ثم أطلقت ضحكة قوية أخرى وهي تقول لهمام:

- يا لعجائب القدر!

إحدى صديقاتي تخبرني أنها رأتك بالمنطقة فذهبتُ لرؤيتك في غرزة "عادل" فلم أجدك، فلعبت الوساوس برأسي أنك على علاقة بامرأة غيري وجئتَ بها إلى هنا...

قاطعها "همام" قائلًا وهو يقبض على كتفيها:

- اسمعيني جيدًا يا "سامية".. ما سمعتِه الآن هو بروفة لمسرحية ننوي تقديمها في مركز الشباب و...

قاطعته صارخة وهي تبعد يديه عنها:

- مسرحية؟! وماذا عن الجثة التي تم دفنها في السرداب؟! جثة "ناصر غازي"!

هوت عبارتها الأخيرة عليهم كالصاعقة وشحبت وجوههم حتى حاكت وجوه الموتى ولم يعد هناك ما يُقال..

لقد كشفت "سامية" سِرَّهم..أصبحت رقابهم الآن معلقة بأي كلمة تخرج من بين شفتي امرأة لعوب لا يُؤْمَنُ مكرُها ولا لسانها..وقبل أن يتفوَّه أحدهم بحرف اقتربت "سامية" من "همام" وانتزعت سيجارته من بين شفتيه، وأخذت منها نفسًا عميقًا نفثت دخانه بقوة في وجه "همام" ثم هتفت:

- ولكن... لا تخافوا مني... أنا معكم.

هَتَفَ "همام" وقد برقت عيناه بغضب:

- معنا!

هتفت وهي تتحسس بأصابعها أسفل شفتيه:

- نعم.. سأنضمُّ لفريقكم.. فريق السفاحين و...

أبْعَدَها "همام" في خشونة صارخًا بغضب:

- "سامية "! هل تعبثين بنا؟!

سحقت سيجارتها أرضًا بقدميها وهي تصرخ بغضب:

- ومن قال إني أعبثُ معكم.. قلتُ سأنضمُّ لفريقكم.. وسنجعل من هذا البيت مقبرة لكل من ظلمونا ولكن...ولكن بشرط واحد.

تطلع إليها الخمسة في ذهولٍ وقد لمعت عيناها ببريق جنوني عجيب وهي تستطرد:

- شرطي الوحيد هو أن تبدؤوا بأخي..عادل.."عادل حشيشة"!

***

(٢٨)

كانت "سامية" في شقتها تشاهد التلفاز عندما وجدت باب الشقة يُفتح ويدخل "عادل حشيشة" ومعه رجل عجوز تجاوز الستين يحمل مجموعة من الهدايا الثمينة وقال لها عادل وهو يضع الهدايا جانبًا:

- أبشري يا سمسمة.. لقد خطبك الشيخ "جاسر" والزواج مساء اليوم.

تتطلعت " سامية " إلى الرجل العجوز الذي يتفرس بعينيه الشبيهتين بعيني ذئب جائع في جسدها، ثم ألقت جسدها أرضًا تحت قدمي أخيها تقبلها وهي تهتف من بين دموعها:

- أرجوك يا "عادل".. أرجوك..أنا أختك الوحيدة..وليس لي سواكَ بعد وفاة أمي وأبي.

انقضّ عليها "عادل" وجذبها من شعرها في قسوة وهو يصرخ بوجهها:

- الشيخ "جاسر" زوج لا تحلمين به.. لقد دفع مهرًا غاليًا..هل تعلمين كم دفع؟ لقد دفعَ عشرين ألفًا من الجنيهات..ولن يُكلِّفُنا شيئًا.

تطلَّعت إليه من بين دموعها ثم نظرت للشيخ "جاسر" الذي كان - وما زال - يتطلع لجسدها في وقاحةٍ ثم انحنت تُقبِّل قدمه هاتفة:

- أرجوك.. أرجوك إنني في عمر ابنتك.

تحسَّس الرجل الذئب جسدها غير مراعٍ وجود أخيها وهو يقول:

- ستسافرين معي وتعيشين معي في قصر..ستكونين فيه ملكة متوجة ومن حولك الخدم والحشم.

أبعدت يدها عنها في ضيق وهي تطالع ملامحه القبيحة ثم نهضت واقفة وأسرعت لحجرتها، وألقت جسدها فوق فراشها وأفرغت عليه نهرًا من الدموع..

تابعها "عادل" وهي تدخل حجرتها وقال للشيخ "جاسر" وهو يجلس بجواره ويده تتحسَّس جسده:

- لا تبالِ يا شيخ "جاسر"..إنه بعض من دلال البنات.. ولكنها ستتزوجك.. لا تقلق.

وصمت قليلًا ثم استطرد قائلًا ويده ما زالت تتحسس جسد الرجل:

- ثم.. هل لكَ أن تخبرني أين سنجد رجلًا مثلك؟

ضغط الرجل بأصابعه على يد عادل التي تتحسَّس جسده وقال كاشفًا عن أسنانه الصفراء القذرة:

- تأكد يا أخ "عادل" أنها لن تندم.

ثم استطرد ويده تتحسس جسد "عادل":

- وأنتَ أيضًا لن تندم.

تطلع إليه "عادل" قائلًا وهو ينهض ويجذب يده في رفق:

- نظرتي لكَ حين رأيتك بالغرزة كانت في محلها.

ثم استطرد قائلًا ويده ما زالت تتحسس جسده:

- هيا معي للداخل لترتاحَ قليلًا.

تبعه الشيخ العجوز إلى حجرته، وما إن اختفيا بداخل حجرة "عادل" حتى خرجت "سامية" حيث كانت تتابع ما يحدث بينهما من ثقب باب حجرتها..انتظرت دقائق ثم تسللت على أطراف أصابعها إلى حجرة أخيها وانحنت تنظر من ثقب الباب..وهالها ما رأت..وأحست بحالة من القرف والاشمئزاز يسيطران عليها وأسرعت إلى الحمام تُفرغ ما في جوفها!

***

(٢٩)

تسعون يومًا بالتمام والكمال قضتها "سامية" زوجة لهذا الذئب العجوز..تسعون يومًا ذاقت فيها الأمرّين..تسعون يومًا عانت فيها الكثير والكثير من الذُّل والضرب والإهانة والأفعال الشاذة..ونجحت بمساعدة بعض المصريين هناك في الهروب من جحيم ذلك الذئب العجوز..وعادت لمصر مرة أخرى بعد ثلاثة أشهر..ولكنها لم تعد إليها كما غادرتها..لقد غادرتها فتاة بكر عذراء تشعُّ أملًا وتفاؤلًا..واليوم تعود إليها امرأة جريحًا يائسة منكودة..

- "لا تهتمي.. غدًا أبحث لكِ عن زوج أفضل منه".

هكذا قال لها "عادل" بعد عودتها وكأنه يعمل نخاسًا بسوق العبيد..نعم.. نخاسًا لا همّ له إلا المال.. والمال فقط..وذات يوم بعد ظهيرة أحد الأيام دخل عليها "عادل" قائلًا بابتسامته البلهاء التي قلما تُفارِقُ شفتيه:

- نحتاج شابًّا قويًّا لتكسير حائط الحمام لتوسعته.

ردت عليه في لا مبالاة وهي تعبث بهاتفها:

- وماذا أفعل أنا؟!

- لا شيء.. فقط ستأتين معي لميدان السيدة عائشة حيث يتجمع العمال فنأتي بأحدهم، تطلعت إليه في ضيق ونهضت تستبدل ملابسها..وفي طريقهما لميدان السيدة أحسَّت بالزهو يجتاح كيانها وهي تطالع نظرات الناس التي تراقبُ جسدَها وتتفحصه، فأحست أنها ما زالت جميلة وأن جسدها لم يفقد رونقه على الرغم مما حدث لها وعانته على يد العجوز الذئب..

توقفا معًا أمام العمال الذين يفترشون الرصيف وتوقفت عينا عادل على شابٍّ تبرزُ عضلاته القوية وأشار له، أقبل عليهما الشابُّ وعيناه معلقتان بجسد "سامية " وهو يقول:

- تحت أمرك يا باشا.

ربت " عادل " على كتفه بابتسامته البلهاء وقال:

- حائط صغير نودُّ تكسيره لتوسعة الحمام.

أسرع معهما الشاب ذو العضلات حاملًا مطرقته وقد نسيَ أن يتفق معهما..فيكفي أنه سيعمل في بيت تسكنه امرأة كهذه! وحين وصلوا إلى الشقة اختفى "عادل" فجأة وكأن الأرض قد انشقت وابتلعته، و"سامية" تتلفَّت حولها في حرج قائلة للشاب وهي تقدم له مشروبًا:

- سيعود "عادل" بعد قليل.. فهو الذي يعرف ما ينبغي فعله.

جلست أمامه قليلًا ثم نهضت لبعض شأنها وعينا الشاب لا تفارقان جسدها الذي يتموج أمامه كحية رقطاء، وحين دخلت حجرتها فوجئت بـ "عادل" وقبل أن تتفوه بحرف قال لها بحسم:

- انتظري هنا ولا تغادري حجرتك.

قال ذلك وتركها خارجًا حيث الشاب، وجلس معه دقائق ثم اختفيا بعدها في حجرة "عادل"..

ومرة أخرى تسللت على أطراف أصابعها..ومن ثقب الباب نظرت..ومرة أخرى سيطر عليها إحساس القرف والاشمئزاز..ومرة أخرى أفرغت ما في جوفها، وبعد فترة سمعت باب الشقة يُغلق و"عادل" يقف في ردهتها فسألته ساخرة:

- أين الشاب؟! وهل قام بتكسير حائط الحمام؟!

رد عليها ببرود:

- غدًا سيأتي ويكسره.

وفي أحد الأيام طلب منها أن تذهب للميدان وتحضر له أحد الشباب فرفضت، فما كان منه إلا أن هَجَمَ عليها وضربها وجذبها من شعرها... فنهضت تنفذ أوامره تسبقها دموعها..

***

(٣٠)

ما إن أتمت "سامية" روايتها حتى ألقتْ جسدَها فوق المقعد القديم، وصدرها يعلو ويهبط في غضب شديدٍ، وقد جحظت عيناها في جنون عجيب، فاقترب منها "همام" وأشعل لها إحدى سجائره في حين كان "صلاح" يهتف بغضب:

- هذا الحيوان يستحقُّ القتل.

واستطرد "رءوف" في اشمئزاز:

- إنه شيطان... شيطان ارتكب كل الموبقات.

رد "معتز" وهو يكاد يُجنُّ:

- أنا لا أصدق أن هناك إنسانًا بشعًا لتلك الدرجة! يستخدم أخته لجلب الشباب ليمارس شذوذه وفجوره!

هَزَّ "كمال" رأسه قائلًا وهو يتطلع لـ "سامية" وقد عقد حاجبيه في غضب:

- لديكِ كل الحق فيما تطلبين... إنه يستحق القتل بدلًا من المرة ألف مرة.

وفي تلك اللحظة اقترب "همام" من "سامية" مرة أخرى، واحتوى جسدها الذي ما زال يرتعد بين ذراعيه قائلًا وعلى شفتيه ابتسامة:

- أهلًا بكِ معنا يا "سامية" عضوًا دائمًا في الفريق..فريق السفاحين.

وتحولت ابتسامته الخفيفة التي تعلو شفتيه إلى ضحكة..ضحكة قوية مجلجلة تردد صداها في المكان كله!

***

وصلَ "عادل حشيشة" إلى بيته المسكون إثر مكالمة من "همام" يُخبره فيها بأنه أحضرَ له من سيؤجر بيته بمبلغ جيد، ولمحَ "همام" ينتظره أمام البيت بمفرده وبيده لفة كبيرة، فقال له وهو يفتح باب بيته:
- أهلًا يا أستاذ "همام".

فتحَ "عادل" الباب وخطا داخله بحذر وهو يقول لـ "همام":

- هل تصدقني يا أستاذ "همام" لو قلتُ لكَ إنني بدأتُ أصدق أمر الموتى الذين يتجولون بالبيت.

دخل "همام" البيت قائلًا له وهو يضع اللفة التي يحملها على مائدة تتوسط الصالة:

- لا تقل هذا الكلام أمام المؤجر الجديد حتى لا يهرب.

ابتسم "عادل" ابتسامته البلهاء قائلًا وهو يتطلع لمجموعة من المسامير الضخمة المثبتة بالحائط على مسافات:

- ما كل هذه المسامير؟! لم تكن موجودة من قبل.

أشعلَ " همام " سيجارته ورد عليه بعدم اهتمام:

- لعلها تخصُّ أحدًا ممَّن سكنوا هذا البيت وهربوا منه.

هَزَّ "عادل" رأسه في اللحظة نفسها التي سمعوا فيها طرقات على باب البيت فأسرع "همام" وفتح الباب فوجد كمال أمامه بصحبة "عزمي حافظ" الذي مال على أذن "كمال" وهمس في أذنه وهو يشير إلى "عادل":

- أهو ذا؟

أومأ "كمال" برأسه إيجابًا في غموض في اللحظة نفسها التي كان فيها "همام" يهتف وهو يشير إلى "عزمي حافظ":

- وها هو "عزمي بيه حافظ" وصل.

خطا "عزمي" بالداخل وهو يتحسَّس جيوبه المكتظة بالمال، وراح يتطلع لـ "همام" الذي كان يفكُّ اللفة التي وضعها على المائدة، ويُخرج

منها عددًا من زجاجات الخمر، ومجموعة من الكئووس، وهتف بهم في سعادة وهو يفرك كفيه:

- من الواضح أن صحبتكم ستروق لي.

ابتسم "همام" في غموض وهو يتناول من جيبه قطعة من الحشيش يناولها "عادل حشيشة" إياها قائلًا:

- لا تتعجل يا " عزمي " بيه... فما زال في جعبتنا الكثير.

ضحكَ "عزمي" وهو يتطلع لـ "عادل" الذي جلس أرضًا وراح يحشو السجائر بالحشيش ويتناول منه واحدة ويشعلها في تلذُّذٍ قائلًا من بين سُحب الدخان:

- كيف لي لم أعرف شبابًا مثلكم من قبل.

ابتسم "كمال" في غموض وهو يصب الخمر بالكؤوس ويناول إحداها له قائلًا:

- لا تتعجل يا "عزمي" بيه!

أشعل "همام" سيجارته ونفث دخانها وهو يقول لهما:

- لا مانع من بعض الاحتفال بهذه الصحبة الجميلة قبل أن نعقد اتفاقنا الذي جئنا من أجله.

هزوا رؤوسهم في سعادة وهم يدخنون الحشيش ويجرعون الخمر..

"عادل" يهتف في سعادة وهو يجرع كأسه:

- خمر وحشيش! هل هناك أجمل من ذلك؟

ضحكَ "همام" قائلًا وهو يعطي عزمي كأسا أخرى:

- النساء يا "حشيشة"... النساء.

توالت ضحكاتهم والدخان الأزرق قد صنع فوق رؤوسهم غمامة أثقلت حركتهم و"عادل" ينهض مُعتمدًا على الحائط في طريقه للحمام، في حين هتف "عزمي" وجفونه نصف مفتوحة ويده تتحسس جيبه:

- الوقت تأخَّر.... سأذهب.

نهض "همام" قائلًا وهو يقطع عليه طريقه:

- إلى أين يا "عزمي بيه"؟! إن حفلنا لم يبدأ بعد.

قال له ذلك ثم هوى بكلتا يديه على عنقه من الخلف بضربة قوية، هوى بعدها "عزمي" أرضًا، فأسرع "همام" و"كمال" وسحب جسده إلى إحدى الحجرات وأغلقا الباب عليه، في اللحظة نفسها التي كان

"عادل حشيشة" يهتف بجفون نصف مفتوحة:

- أين الرجل؟

تطلعا إليه في سُخريةٍ ثم هوت قبضة "همام" على عنقه، فهوى أرضًا هو الآخر وشارك "عزمي" حجرته، تطلَّع "كمال" إلى ساعته

التي قاربت الثانية صباحًا في اللحظة نفسها التي دخل فيها "صلاح" بصحبة "سامية" ومعهما "راضي" عم معتز..

خطا "راضي" بقدميه داخل البيت في حذرٍ وهو يهتف:

- هذا البيت يبدو عجيبًا.. إنه أشبه بالمقبرة.

لكزته "سامية" في صدره بكوعها قائلة في دلال:

- بيتي أنا تشبهه بالمقبرة.

دخل وراءها ضاحكًا وهو يُتابع جسدها الذي يتموَّج داخل العباية السوداء الضيقة التي ترتديها وقال:

- المقبرة بعد دخولك إليها تصبح جنة. وفجأة..هوت على رأسه ضربة قوية من الخلف، فهوى أرضًا بلا حراكٍ وقد فَقَدَ وعيه وشارك رفاقه الحجرة المغلقة..ولم تمر دقائق حتى دخل "رءوف" و"معتز" ومعهما المعلم "غازي" الذي خطا بقدميه إلى البيت وعيناه حائرتان وراح يسألهما:

- أين ولدي "ناصر"؟!

جاءه الردُّ من خلفه على لسان "همام" وهو يقول:

- ستراه يا معلم.. لا تتعجل.

وقبل أن يلتفت المعلم "غازي" بجسده الضخم، هوت على رأسه ضربةٌ قوية هوى على إثرها فاقدًا للوعي ليلحق برفاقه إلى ذلك العالم..عالم اللاوعي!

(٣١)

كان "عزمي حافظ" هو أول من عاد منهم إلى وعيه، ففوجئ بجسده مقيدًا في مسامير مثبتة بقوة في الحائط وتحيط به قيود قوية من رقبته ويديه ووسطه وقدميه... هتف في ذعر وهو يحاول عبثًا التخلص من قيوده:

- ما هذا؟ أين أنا؟!

قاطعته ضحكة قوية انطلقت من "همام" الذي كان جالسًا مع رفاقه بصحبة "سامية" وقد اضطجعوا بظهوروهم على الحائط يدخنون السجائر المحشوة بالحشيش والكؤوس تترنح بأيديهم، وقبل أن يتفوَّه بحرف سمع عن يمينه تأوُّهاتٍ، فلمحَ بطرف عينيه "عادل حشيشة" مقيدًا إلى الحائط مثله وما زال فاقدًا وعيه..

صرخَ "عزمي":

– ما هذا؟! ماذا ستفعلون بنا؟! لا ترتكبوا أية حماقة تندمون عليها.. أنا "عزمي حافظ" ومن الممكن أن...

قاطعته ضحكة أخرى قوية مُجلجلة، ولكنها كانت هذه المرة من "رءوف" الذي نهض من وسط أصدقائه واقترب منه قائلًا والدموع في عينيه:

– نعلم.. نعلم أنك "عزمي" بيه حافظ..وبإمكانك أن تفعل الكثير..بإمكانك أن تدفع برجل عجوز إلى السجن ظُلمًا لمجرد أنه رفض مشاركتك أعمالك غير المشروعة في تجارة العملة.

قاطعه "عزمي" في رعب قائلًا:

– " رءوف " يا ولدي.. ما حدث بيني وبين والدك كان سوء تفاهُم وانتهى..نعم يا ولدي.. لقد ذهبتُ صباح اليوم وتنازلتُ عن القضيّة و..

قاطعه "رءوف" صارخًا:

– متى؟! متى تنازلت؟ إنك لم تتنازل إلا بعد أن جاءك أبي وهو لم يُشفَ بعد ونفَّذ أوامرك.

بلعَ "عزمي" ريقه بصعوبة وقال:

– أرجوك.. أرجوك يا ولدي.. ارحمني..

– وهل رحمتَ أبي حين جاءك يتوسل إليك ويطلب عفوك؟ ألم تقل له إن أمثاله لا مكان لهم إلا السجن؟

انكمش "عزمي حافظ" في نفسه في اللحظة نفسها التي سمع فيها صوت "عادل" يقول وقد بدأ يستعيد وعيه:

- أستاذ "همام".. ما هذا؟ وماذا تفعلون؟!

- "أهلًا يا عادل"

التفت "عادل" لمصدر الصوت فوجد أخته "سامية" تجلس بينهم تدخن وتشرب، فهتف بذهول:

- "سامية"! ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟!

نهضت من مكانها وهي تكاد تترنح، واقتربت منه وهي تأخذ نفسًا عميقًا من سيجارتها، ونفثت دخانها في وجهه وراحت تتطلع إليه في كُرهٍ شديد ثم..

ثم أطفأت سيجارتها في صدره فانطلقت من حلقه صرخة رهيبة تردد صداها بين المقابر، فهتفت به وقد تضاعفت نظرة المقت والكراهية بعينيها:

- اصرخ.. اصرخ يا "عادل".. اصرخ وابكِ كالنساء..

هتف بألم:

- "سامية" أنا أخو....

قاطعته صارخة في جنون:

- لا تقل إنكَ أخي..الأخ لا يبيع أخته من أجل المال..الأخ لا يستخدم جسد أخته فخًّا لاصطياد الشباب ليمارس معهم الشذوذ والفجور.

تطلَّع إليها "عادل" ووضع عينيه بالأرض ولم يستطع أن يتفوَّه بحرفٍ بعد كل ما قالته..

لقد عرَّته أخته أمامهم تمامًا، ولم يعد لديه ما يستر به نفسه..

- "ما الذي يحدث هنا؟ ".

انتبه الجميع إلى "راضي" عم معتز وقد استعاد وعيه، فنهض معتز من مكانه واقترب منه قائلًا في برود وهو ينفث دخان سيجارته في وجهه:

- أهلًا.. "راضي بك"! هذا وقت الحساب.

هتف "راضي" صارخًا في غضب:

- حساب... حساب من؟! فُك قيودي يا "معتز" وإلا...

قاطعه "معتز" صارخًا:

- وإلا ماذا يا عمي؟ مَن ستحرضه علينا هذه المرة؟! المعلم "غازي" هنا.. فمن سيساعدك بعد ذلك؟

سيطر الرعبُ على "راضي" حين رأى "غازي" عن يساره مقيدًا على الحائط مثلهم وما زال فاقدًا وعيه، فقال بتلعثم:

- "معتز" يا ولدي.. أعترف أني أخطأتُ بحقكم..نعم.. لقد سدَّد لي والدك ديونه قبل موته، وأنتم شركاء معي في المحل، وسأعترف بذلك أمام الجميع..صدقني يا ولدي.. سأعترف.

تطلَّع إليه "معتز" بنظرة ملؤها الحقد والكراهية وقال ساخرًا:

- يبدو أنك لم تفهم كلامي جيدًا يا عمي.. لقد انتهى وقت الاستجداء والاعتراف، وهذا وقت الحساب.. وبما أنك لم تتزوج ولم تنجب فالمحل سيعود إلينا بعد موتك..هل تسمع؟ سيعود إلينا وحدنا، وبلا شريك.

فوجئ الجميع في تلك اللحظة بـ "راضي" يبكي ودموعه تسقط على خده كالنساء، فتطلع إليه "معتز" ساخرًا وتركه، في اللحظة نفسها التي نهض فيها "همام" واتجه إلى "غازي" الذي بدأ جسده يتحرك وهو يتأوَّه في ألمٍ وقد بدأ يستعيد وعيه..

وقفَ أمامه "همام" متطلعًا إليه في غضبٍ رهيبٍ، ورفعَ يده وهوى بها في صفعةٍ هائلة على وجهه..

ومن قوة الصفعة استعاد "غازي" وعيه دفعةً واحدة وراح يتطلع إلى "همام" في ذهول وعيناه تتساءلان:

- ما هذا الذي حدث؟! "غازي" لا يُصفع على وجهه هكذا! لا بد أن القيامة قد قامت وهو الآن في القبر يحاسبه الملكان..نعم.. نعم.. أي شيء غير هذا لا يكون منطقيًّا..

وفجأة هَوَتْ على وجهه صفعةٌ أخرى أعادته لعالم الواقع فهتف بحروفٍ متعثرة:

- لقد ضربتني على وجهي!

خلعَ "همام" حذاءه وهوى بكعبه على رأس "غازي" وفي عينيه غضبٌ مخيف وهو يردد:

- ليتها تقتصر على ذلك فقط!

سالت الدماء من جانب شفتي "غازي" ورأسه و"همام" يتطلع إليه في بُغْضٍ ومقتٍ شديدين قائلًا:

- كنتَ دائما تظنَّ نفسك فوق البشر..كَمْ أهنتَ وتجبَّرتَ وأذللتَ وسرقتَ واغتصبتَ! وحين وقف أبي أمامك ليمنع أذاك عن أحد الغلابة صفعته على وجهه..أنتَ يا حيوان، صفعتَ أبي.. أبي أنا على وجهه!

قال "همام" ذلك، ثم هوى على وجهه بصفعة ثالثة ارتجَّ لها كيان "غازي" وهو يتطلع إليهم في ذِلةٍ وانكسار و..... رعب! نعم.. رعب.. ولأول مرة يجتاح مشاعره هذا الإحساس..إحساس الرعب!

هتفَ فجأة وقد تذكَّرَ أمرًا أفزعه:

- ابني "ناصر"... ماذا فعلتم به؟

هتفَ "همام" ضاحكًا في جنون وبريق الجنون يسيطر على عينيه الدامعتين:

- ابنك "ناصر".. هذا الحيوان.. هاتك الأعـراض..إنـه هنـا.. في حفرة بسرداب أسفل هذا البيت.

وصمتَ قليلًا، ثم استطرد قائلًا وبريق الجنون يتضاعف في عينيه:

- وقد أعددتُ لكَ حفرة واسعة بجواره.

تراجَعَ بعدها "همام" للخلف، وانضمَّ لأصدقائه، وصـنعوا دائـرة بأجسادهم، وأخذ كلٌّ منهم يضع يده فوق يد الآخر ثم هتفوا في جمود:

- السعي للحقِّ هدفُنا.. ورفع راية العدل غايتُنا.

وبالجمود نفسه تحركوا إلى أحد أركان صـالة البيـت، وتنـاول كـل منهم نابوتًا قويًّا رفعه عاليًا، وبخطـوات جامـدة تحركـوا تجـاه الرجـال الأربعة المُقيَّدين بالحائط الذين كانوا يتطلعون للنبابيت التي تتأرجح في أيدي الأصـدقاء في رعـبٍ وفـزع شـديدين، وهـم يظنـون أنفـسهم في كابوس سرعان ما سيستيقظون منه، بينما كانت "سامية" تتطلـع إلـيهم من أحد أركان الصالة، وأخذت تُراقِب أخاها "عادل" - الذي يرتعـد جسده بشدة - في شماتة..

نظرات الهلع تملأ عيون الرجال الأربعة..كلٌّ منهم كـان يتمنَّـى أن يـصرخ.. أن يعـترض.. أن يهـرب.. ولكـنهم لم يفعلـوا شـيئًا مـن ذلك..الأصدقاء الخمسة يقتربون منهم على شكل نصف قُطْرٍ..نـصف القطر يضيق ويضيق..الإضاءة بالصالة تخفُتُ وتخفت..أصبحنا لا نرى غير مجموعة من الأشباح تتحرك..

النبابيت ترتفع وتهوي..الصرخات تتردَّدُ في المكان..

وفجأة..يهوي المكان كله في بئر عميقةٍ من الصمت، وقد غمرته الأضواء من جديد..الأصدقاء الخمسة كلٌّ منهم مُلقًى بأحد الأركان..عرقٌ غزير يكسو الوجوه..الصدور تعلو وتهبط..الدماء تسيل من النبابيت الملوثة بأيديهم..أمام عيونهم أجساد الرجال الأربعة غارقة في بُحيرة من الدماء وقد فارقتهم أرواحُهم وعليها مُلاءة حمراء كانت في الأصل بيضاء..بعد دقائق كان أول مَن تحرَّك هو "همام" الذي تناول زجاجة الخمر وأفرغ محتواها بالكؤوس التي وزعها عليهم مُردِّدًا وهو يجرع كأسه مرة واحدة:

- هيا.. هيا يا رفاق..هيا اشربوا جميعًا نَخْبَ أول خطوة في طريقنا..طريق تحقيق العدالة.

تطلع الأصدقاء للكؤوس في أيديهم بجمود لحظاتٍ ثم جرعها كلٌّ منهم مرة واحدة، وانطلقت من أفواههم ضحكات..ضحكات هيستيرية محمومة مختلطة بالدموع!

***

(٣٢)

اندفعَ "أحمد راغب" إلى المقهى وأخذ يبحث بعينيه عن المعلم توفيق ولمَّا لم يجده هتفَ بـ "زيزو":

- أين المعلم يا "زيزو"؟

- لم يأتِ بعد، ولكنه على وشك الوصول.

جلس "أحمد راغب" على أحد مقاعد المقهى بالخارج وهتف في "زيزو" وهو يشعل إحدى سجائره:

- شاي سريع يا "زيزو".

وفي تلك اللحظة جاءه صوتُ المعلم "توفيق" وقد أقبل من بعيدٍ بجسده الضخم، وهو يصرخ كعادته في وجه "الشامي" الذي كان يهزُّ رأسه مُتمتمًا بكلمة واحدة لا تُفارق شفتيه:

- حاضر.. يا معلم.. حاضر..

نعم.. فالشامي يعرف المعلم "توفيق" جيدًا.. ويعلم أنه لا توجد قوة في الأرض بإمكانها أن تمنع المعلم "توفيق" عن إتمام صراخه وسبابه اليومي الذي اعتاده الجميع، بل ينتظرونه في شغف و..

هَجَمَ "أحمد راغب" على المعلم "توفيق" وجذبه من يده قائلًا في أذنه بهمس:

- كارثة يا معلم "توفيق".. كارثة.

تطلع إليه "توفيق" في استنكار، فاقترب راغب من أذنه وهمس ببعض الكلمات جعلت "توفيق" يتطلع للشامي قائلًا بودٍّ وقد نسيَ ما فعله فيه من لحظات:

- أحضر لي السيارة يا "شامي".

ابتسم "الشامي" في نفسه، ثم أسرع وأحضر له السيارة التي ألقى فيها المعلم "توفيق" جسده الضخم قائلًا لـ "أحمد راغب" وهو يناوله المفاتيح:

- من فضلك يا "راغب".. عليك أن تقود السيارة فأعصابي لا تحتمل هذا الزحام.

انطلق "راغب" بالسيارة في شارع محمد علي في اتجاه القلعة مرورًا بأحمد ماهر، ومنه لميدان السيدة زينب الذي ظلَّ يدور فيه لحظات ثم

توقف بجوار "أم فاتن" التي كانت توقف المارة وتعرض عليهم صورة "فاتن" وتسألهم قائلة من بين دموعها:

- هذه ابنتي "فاتن".. هل رآها أحدكم؟ هل...؟

نزلَ المعلم "توفيق" من سيارته واتَّجه إليها قائلًا لها في عتابٍ:

- ما هذا يا أم "فاتن"؟

تطلعت إليه أمُّ "فاتن" بعنين محمرتين من كثرة البكاء وقالت:

- أبحثُ عن ابنتي يا معلم... أبحثُ عن "فاتن"..

وصمتتْ لحظةً ثم عرضت عليه الصورة قائلة من بين دموعها:

- هذه ابنتي يا معلم.. هل رأيتَها؟

قالت ذلك ثم انفجرت في البكاء ثانية.

أقبلَ عليهما "أحمد راغب" ومعه مقعدان من المقهى المجاور، وضعهما على جانب الرصيف، تناول توفيق يد أم "فاتن" وأجلسها على المقعد و"أحمد راغب" يناولها عصير الليمون قائلًا:

- تفضلي يا ست أم "فاتن".. تفضلي.

نهضت المرأة وجلست على المقعد وتناولت العصير والمعلم "توفيق" يقول لها:

- أرجوكِ يا أم "فاتن".. لا تفعلي ذلك مرةً أخرى، لقد اتصلتُ بـ "حسين" بيه قدري في الخارجية وهو يتابع الموضوع شخصيًّا و..

قاطعته الأمُّ بألمٍ:

- مضت ثلاثة أشهر يا معلم ولم نعرف أيَّ خبرٍ عن "فاتن".. إلى متى سأنتظر؟ أنا لا أستطيع الانتظار.. أشعر أن ابنتي حدثَ لها مكروهٌ..الشقة بدونها أصبحت سجنًا..وماذا أقول لأبيها حين أقابله؟ أأقول له إني فرطتُ في ابنتي؟ في "فاتن".

ربت المعلم "توفيق" على كتفها وهو يكاد يبكي وقال لها:

- بإذن الله ستعود ابنتك، الأمل في الله سبحانه وتعالى كبير، وأنا سأذهب الليلة لزيارة الحاج "قدري" وسأطلب منه أن يكلم ابنه "حسين" بنفسه..وتفائلي - إن شاء الله - خيرًا.

قال ذلك وأخذ يدها واتجه بها إلى السيارة التي فتح "أحمد راغب" بابها وركبوا فيها جميعًا وقلوبهم يجمع بينها شيءٌ واحد..الألم... والألم فقط!

***

(٣٣)

خرجوا من السرداب وملابسهم مُعفَّرة من التراب، وألقوا أجسادهم أرضًا في إنهاكٍ وقد انتهوا لتوِّهم من مهمتهم، وقاموا بدفن الجثث الأربعة بالسرداب، توقفت عيونهم على ثلاثة خواتم ذهبية وسلسلة من الذهب ورزمة كبيرة من المال تعدَّت العشرة آلاف جنيه...إنها متعلقات مَن تم دفنهم منذ لحظات..

هتفَ "صلاح":

- وماذا سنفعل بهذه المتعلقات؟

ردَّ "كمال" بحيرة:

- كيف لم ننتبه لهذا الأمر من قبل؟!

قال "معتز" وهو يشعل سيجارته:

- الأمر في غاية البساطة... نرسل متعلقات كل منهم في ظرفٍ لأهله و..

قاطعه "رءوف" قائلًا:

- ولكن في هذا التصرُّف مخاطرة كبيرة..

ثم استطرد وهو يتطلع لـ "همام":

- لماذا لا تتكلم يا "همام"؟

نفثَ "همام" دخان سيجارته قائلًا في غضبٍ:

- أنتظرُ حتى تنتهوا من عبثكم.

ردَّ عليه "كمال" ذاهلًا:

- عبثنا!

لمعت عينا "همام" في غضب وهو يقول:

- نعم عبثكم.. كيف نُعيدُ هذه المتعلقات والشرطة من الممكن أن تتوصل إلينا من خلالها؟!

هَزَّ "معتز" رأسه قائلًا:

- نعم.. نعم.. أنتَ على حق يا "همام".. ولكن كيف سنتصرف فيها؟

ردَّ "همام" بهدوء وقد لاحت على شفتيه شبحُ ابتسامة:

- لا شيء يا "معتز".. لن نفعل شيئًا؛ هذه الأشياء مِلكٌ لنا و... قاطعه "رءوف" صارخًا:

- مِلكٌ لنا؟! وهل نحن باللصوص؟

تناولَ "همام" كأسه وجرعها مرة واحدة قائلًا:

- لا يا "رءوف".. لسنا باللصوص ولكننا..ولكننا رُسُل العدالة.. والعدالة تحتاج إلى مصاريف كما تعلمون جميعًا و..

قاطعه "كمال" مُحتدًّا:

- ولكن هذا لا يعني أن نسرق يا "همام".

اتسعت ابتسامة "همام" بعض الشيء وهو يقول له:

- أنتَ على حق يا صديقي ولكن.. ولكن أخبرني مِن أين سنأتي بالمصروفات التي نحتاجها؟

اتسعت عينا "رءوف" وهو يتطلع إلى همام في ذهول ثم التفت لأصدقائه قائلًا:

- يبدو أننا تسرعنا يا رفاق.. كان يجب أن ندرس الأمر جيدًا.

ألقى "همام" كأسًا أخرى في جوفه قائلًا وهو يمسح فمه بكفه:

- سبق السيف العذل يا رفاق.. ولا فائدة لكلامكم هذا.. والدليل هنا.. هنا في سرداب هذا البيت.

ارتجفت أجسادهم الأربعة في آن واحد وهم يستمعون لكلمات همام، وقد جحظت عيونهم في جنون وجفَّت حلوقهم وكأنهم لم يدركوا تلك الحقيقة إلا الآن..

قبضَ "همام" بكلتا يديه على كأس أخرى راح يتطلع إليه لحظات ثم التفت لهم وقال بهدوء:

- أعلم أن الأمر صعب علينا يا رفاق..ولكننا اخترنا أيضًا طريقًا صعبًا..طريق الحق والعدالة..ويجب أن نتغاضى عن أي شيء في سبيل تحقيق هدفنا الأسمى..هل تسمعون؟

ثم جرع الكأس التي بيده دفعةً واحدة وهو يستطرد:

- هدفنا الأسمي!

هَزَّ الأربعة رؤوسهم قائلين في أسى:

- نعم يا "همام".. أنتَ على حق.

في تلك اللحظة تعبر سامية بجسدها من باب البيت، ورائحة الكباب الشهي الذي تحمله تسبقها، يُقابِلُها "همام" ويتناول منها لفة الكباب ويضعها على المائدة قائلًا لرفاقه:

- إنني أكادُ أموتُ من الجوع.. وأظنُّ أنكم أيضًا كذلك.

نهض "رءوف" معلنًا الانصراف وهو يقول:

- لا يا "همام".. سأنصرفُ الآن، فلا أريدُ أن يستيقظ عم "صابر" ولا يجدُني بالبيت.

نهضَ أيضا "كمال" و"صلاح" و"معتز" قائلين:

- انتظرنا يا "رءوف".. سنأتي معك؛ فالفجر أوشك أن يؤذن.

تطلع إليهم "همام" ثم التفت لـ "سامية"، بنظرة ذات مغزًى، وتناول قطعة من الكباب ألقاها في فمه وقال:

- كما تشاؤون يا رفاق... ولكني سأقضي ليلتي هنا.

خرج الأصدقاء الأربعة في حين تناولَ "همام" قطعة أخرى من الكباب، قضم نصفها بأسنانه، ووضع النصف الآخر في فم "سامية" التي جلست بجواره قائلًا لها:

- لمن سنعود؟! سنقضي ليلتنا معًا هنا.. فمن اليوم لن يسأل عنكِ أحدٌ..فقد بدأَ عهدٌ جديدٌ..عهدُ الحرية!

***

(٣٤)

بأحد المقاهي الشهيرة المُطلَّة على ميدان طلعت حرب بوسط القاهرة كان "حاتم منير" مع بعض من أصدقائه قد انتحوا بأنفسهم بأحد أركان المقهى وأحدهم يهتف:

- لقد تجاوز الظالمون المدى.

ردَّ عليه آخر:

- نعم.. لقد وصلت الأمور لطريق مسدود، تشعر معها أن الشعب في وادٍ والمسئولين في وادٍ آخر و..

قاطعه ثالث هاتفًا:

- لقد وصلت الأمور لمرحلة الانفجار لدرجة أن واحدًا من الشعب قد أحرق نفسه أمام مجلس الشعب وآخر أحرق نفسه بالإسكندرية.

اعتدل "حاتم منير" في مقعده هاتفًا:

- وهذا هو مربط الفرس.. إن الشعب لم يعد كما كان، وأنا على يقين أنه لن يرضى بالظلم بعد الآن.

وصمت "حاتم" لحظاتٍ تطلع فيها لوجوه أصدقائه ثم استطرد قائلًا:

- وهنا يأتي دورنا.. لا بد أن نُوجِّه هذا الشعب للطريق السليم و..

قاطعه أحدُهم متسائلًا:

- نُوجِّه الشعب؟

هتفَ "حاتم" وعيناه تشعان ببريق الأمل:

- نعم، نُوجِّهه وندلُّه على المسار الصحيح الذي يوجه إليه انفجاره.

تساءل آخر قائلًا:

- ولكن كيف يا "حاتم"؟ كيف؟

- بالكلمة يا أصدقائي..الكلمة لها مفعول السحر..هل تعلمون أن كلمات مقالي "عود كبريت" انتشرت على نطاق لم أكن أتخيله..آلافُ المشاركات والإعجابات للمقال على مواقع التواصل الاجتماعي.. بل.. بل وصل الأمر ببعضهم إلى اقتباس بعض الكلمات منه في أحاديثهم العادية في الشوارع والمقاهي...

ابتسم أحد الأصدقاء في مرارةٍ وقال:

- ليتنا نشعر بالتفاؤل مثلك يا "حاتم".

ردَّ عليه "حاتم" قائلًا:

- صدقوني يا رفاق..أنا أشعر بأن نهاية هذا النظام باتت وشيكة وأن انهياره مسألة وقت فحسب..هل رأيتم ما حدث بتونس؟

ردَّ عليه أحدهم قائلًا:

- إن مصر ليست تونس.

هتفَ "حاتم" قائلًا وقد علت شفتيه ابتسامةٌ تشعُّ بالأمل:

- معكم كل الحق.. إن مصر ليست تونس..إن مصر أفضل من تونس..فكم من مرة اجتاحها الغاصبون وظنوا أنهم حولوا مُدنها وقُراها أنقاضًا فإذا بشعبها العظيم ينهض بعظمة وشموخ واضعًا نهاية لهذا المحتل إما يطرده وإما يدفنه بأرض مصر!هذا ما يؤكده التاريخ يا رفاق... صدقوني.

- ولكن هذا أيام الاحتلال يا "حاتم" أما....

قاطعه "حاتم" قائلًا:

- ما نحن فيه الآن أسوأ من الاحتلال ولكن..ولكن سرعان ما يقضي هذا النظام الديكتاتوري على نفسه بيديه تمامًا كالدبة التي قتلت صاحبها.

- إنهم يتصرفون في هذا البلد وكأنه عزبة أبيهم.

ردَّ عليه "حاتم" وقد تضاعف بريق الأمل والتفاؤل بعينيه:

- وهذه هي بداية النهاية..الفُجر والثقة المطلقة اللتان يتصرف بهما هذا النظام هما بداية نهايته و...

قاطعه أحدهم:

- أتقصد تزوير انتخابات مجلس الشعب؟

- نعم.. تزوير انتخابات مجلس الشعب والإعداد لمشروع التوريث وغيره مما سيُعجِّل بنهاية هذا النظام ويكون أول مسمار في نعشه.

توقَّفَ "حاتم" عن الحديث حين تطلع إلى أصدقائه فوجد اليأس والإحباط يسيطران على عيونهم فهتف بحماسةٍ مستطردًا:

- لا يا رفاق.. لا..لا تجعلوا أنفسكم فريسة سهلة لليأس والإحباط..إننا وأمثالنا من الشباب أملُ هذا الشعب..نعم.. أمله في حياة حُرةٍ كريمة..وسنبذل من أجله كل شيء و....

- " مثل ماذا؟ "

التفتَ "حاتم" لمصدر الصوت الذي جاءه من خلفه، فوجد وجوهًا مألوفة يعرفها جيدًا، فنهض من مكانه قائلًا لهم في هدوء:

- سآتي معكم... ولكن لا داعي للتجاوزات.

ابتسم الذي يقف خلفه كاشفًا عن أسنانه الصفراء قائلًا وعلى شفتيه ابتسامة مقيتة:

- ستأتون يا أستاذ "حاتم".. فجميعكم مقبوض عليه.

تطلع "حاتم" إلى عيون أصدقائه - والعربة تنطلق بهم - فوجد نظرات اليأس والإحباط قد تضاعفت مراتٍ ومرات!

***

(٣٥)

- "ماذا تعنون بأن "فاتن" قد اختفت؟! ألم تتزوج بعقد رسمي؟!"

هتفَ "كمال" بتلك العبارة وهو يجلس في المقهى في ذلك الوقت من الصباح، وقد بدا من عينيه أنه لم يَذُقْ طعمًا للنوم، فردَّ عليه المعلم "توفيق" بأسًى:

- بلى يا ولدي.. لقد تزوجت بعقد رسمي، وتم توثيقه بالسفارة، وعلى الرغم من كل ذلك فقد اختفت..

اختفت يا ولدي.

صرخَ "كمال" قائلًا وهو يكاد يُجنُّ:

- وهل يُعقل أن تكون وسيلة الاتصال الوحيدة بيننا وبينها مجرد هاتف يمكن فقدانه أو إغلاقه في أي وقت؟!

نفثَ "أحمد راغب" دخان شيشته وقال:

- لقد اتصل المعلم "توفيق" بابن الحاج "قدري" الذي يعمل بالخارجية بل زاره مع والده الحاج "قدري" في بيته منذ يومين، وهم يعملون على قدمٍ وساقٍ من أجل التوصل لمكانها.

ردَّ المعلم "توفيق" قائلًا:

- نعم يا ولدي هذا ما حدث، وإننا لم نُقصِّر، وندعو الله أن تكون ابنتنا بخير.

نهضَ "كمال" من مكانه فجأة وتركهم مغادرًا المقهى دون أن يستأذن، حيث أحس أن نفسه يختنق وأن ثورة عنيفة تغلي بداخله..على باب المقهى وقف حائرًا وهو يلتقط جرعة من الهواء النقي، ثم تعلَّقت عيناه بشرفة في الدور الرابع بالمبنى المقابل للمقهى، ودون أدنى تفكير اندفعَ إلى مدخل البيت وعبر السُّلم، وقطع الأدوار الأربعة في لحظاتٍ ليجد نفسه وجهًا لوجه أمام أم "فاتن" التي فتحت له باب شقتها وقد تورمت عيناها وانتفخت من كثرة البكاء على فلذة كبدها..دعته الأم للدخول بإشارة من يدها مصحوبة بهمهمة غير مفهومة..جلس أمامها وراح يتطلع لعينيها..قالت عيناه الكثير والكثير..ردت عليه الأم دون أن يسأل:

- لا تغضب يا ولدي.. إنه النصيب، والنصيب كما تعلم لا مفرَّ منه.

كان يتطلع إليها بعينين شاخصتين إلى اللا شيء، وكأنه لا يسمعُها، ثم توقَّفت عيناه على صورة جميلة لـ"فاتن" تُزيِّنُ رُدهـة البيـت..تطلـع للصورة وراح يغـوص في عينيهـا الجميلتـين وقـد لاحـت عـلى شـفتيه ابتسامة باهتة..

و...

- "أحبك يا "كمال".. أحبك."

هتفَ "كمال" وهو يجلس معها في إحـدى الحـدائق داخـل أسـوار الحرم الجامعي:

- شكرًا.

هتفتْ بدهشةٍ وهي تتطلع لعينيه العسليتين:

- علامَ تشكرني؟!

تطلَّع إلى عينيها وهامَ فـيهما في عـشق قـائلًا وعـلى شـفتيه ابتـسامة صافية:

- ملكة جمال الجامعة حين تتواضع وتخصُّني وحدي بهـذه الكلمـة التي تدغدغ مشاعري فهي حتمًا تستحقُّ الشكر.

تطلعت إلى عينيه لحظة ثم نظرت للأرض في حيـاء، فـالتقط كفَّهـا الرقيقة بين راحتيه قائلًا:

- كم أتمنى في تلك اللحظة يا "فاتن" أن يمرَّ الزمن..وأنتهـي مـن دراستي بالجامعة..وأسافرُ كما اتفقنا..

وأعود ليتحقَّق حلمُنا ونتزوج وحينها.. وحينهـا أعـدكِ أننـي لـن أُغادِرَ بيتنا أبدًا و..

قاطعته بحياء وعلى شفتيها ابتسامة ذاب لها وجدانُه:

- لن تغادر البيت؟ والعمل.. ألن تذهب للعمل؟!

اعتصر كفَّيها برفق بين راحتيه وهو يقول وعيناه لا تفارقان عينيها:

- سأتركه.. وأظل معكِ..أتطلع إليكِ..ولن تفارق عيناي عينيـك الجميلتين ليلًا ونهارًا و..

- "كمال".. إنني أشعر بالحرج.

و..

- أين ذهبتَ يا ولدي؟

أفاق "كمال" من شروده وراح يتطلع للأمِّ، ثم نهَض دون أن يتفوَّه بحرف متجهًا نحو الباب ومن أعمق أعماقه انطلقـت تنهيـدة.. تنهيـدة حارة!

***

(٣٦)

اجتمع الأصدقاء ليلًا بالبيت المسكون - أو الذي كان مسكونًا - وأمامهم مائدة حفلت بما لذّ وطاب من الأطعمة والفاكهة، "همام" يتناول تفاحة حمراء كبيرة يقضم منها قضمة كبيرة وهو يقول ضاحكًا:

- هكذا تكون الحياة!

وصمتَ قليلًا وراح يقضِمُ قضمةً أخرى من التفاحة وهو يستطرد قائلًا:

- هل تعلمون يا رفاق أنني كنتُ أظن أن الله خلق هذه الفاكهة للأغنياء فقط و..

قاطعه "رءوف" قائلًا بتوتر:

- ولكن الثمن فادح.. فادح؛ لقد أصبحنا قتلة يا "همام".

تطلع إليه "همام" وألقى التفاحة جانبًا وهو يقول:

- وماذا كنتَ تريد منا أن نفعل يا "رءوف"؟! أتريد منا أن نقضي ما تبقَّى من حياتنا في مَذلَّةٍ وهوان؟! أن نبقى دائمًا تحت أقدامهم ليفعلوا بنا ما يشاؤون؟

هتفَ "رءوف" وعلى وجهه ملامح ألم عظيم:

- ولكن القتل بشع يا "همام"... بشع..وأنا.. وأنا لم أتصور نفسي في يوم من الأيام قاتلًا.

توقف الأصدقاء عن مضغ طعامهم وراحوا يتابعون حديث "رءوف" في شرود و"همام" يهتف به في حدة:

- كلنا هذا الرجل يا "رءوف"..جميعنا لم يتصور نفسه قاتلًا في يوم من الأيام ولكنهم..ولكنهم أجبرونا على ذلك يا صديقي..لم يتركوا لنا خيارًا آخر..وضعونا بين اختيارين لا ثالث لهما..أن تكون قاتلًا أو مقتولًا..ظالمًا أو مظلومًا..ونحن جميعًا رأينا من الظلم ما يكفي، فكان من الطبيعي أن نختار الجانب الآخر..ومهما يكن الثمن.

رَجَعَ "رءوف" رأسه للوراء مضطجعًا على الحائط في ألمٍ هاتفًا في همسٍ وفي عينيه تجمَّع كلُّ ألمِ الدنيا وحزنها:

- نعم يا "همام"... لقد رأينا من الذُّل ما يكفي و..

قاطعه "همام" وهو يقترب منه قائلًا:

- نعم يا "رءوف" رأينا الكثير.. أنتَ نفسك رأيت ما يمكن أن يفعله حيوان مثل عزمي "حافظ" مع أبيك الرجل الطيب، وكيف أنه رقد في المستشفى بين الحياة والموت بسبب هذا الملعون.

هتفَ "رءوف" وهو يتطلع إليه بتوتر:

- نعم يا "همام".. أنتَ على حق..

نهضَ "همام" وصبّ الكؤوس وجرح إحداها قائلًا وهو يمسح فمه بكمه مناولًا كأسا أخرى لرءوف:

- اشرب يا "رءوف".. اشرب ولا تحزن..ولتعلم أننا جميعًا نملك بين ضلوعنا قلوبًا تنبض بالمشاعر الرقيقة، ولكن كما قلتُ لكَ إنهم لم يتركوا لنا خيارًا آخر.

نهضَ "معتز" وتناول كأسه وجرعها مرةً واحدة قائلًا وهو يترنح ومن بين شفتيه انطلقت ضحكة مختلطة بالدموع:

- نعم يا "رءوف".. "همام" على حق.. على حق..

نهضَ "كمال" واحتوى معتز بين ذراعيه قبل أن يقع وأجلسه أرضًا قائلًا:

- اهدأ يا معتز.. اهدأ.

أخذَ "معتز" يلتقط أنفاسه بصعوبة وكان من الواضح أنه يعاني ضغوطًا كبيرة دفعته لهذه الحالة، في حين تناولَ "صلاح" نَفَسًا من سيجارته وهتف من بين سُحب الدخان في شرود:

- هل علمتم بما قاله الشيخ "حسن" في خطبة الجمعة؟

اعتدلَ "همام" وسأله في جمود:

- ماذا قال؟ إنني لم أصلِّ الجمعة.

هتفَ "كمال" ساخرًا:

- لقد قال إننا كفرة ولا نعرف شيئًا عن الدين، وأن الله أعدّ لنا في الآخرة عذابًا عظيمًا.

التقط "صلاح" طرف الحديث واستطرد قائلًا:

- لقد قال ما هو أخطر من ذلك.

اعتدل الأصدقاء وتطلعوا إليه في انتباهٍ، فراح يستطرد:

- لقد قال في حديثٍ جانبي لبعض المصلين بعد خطبة الجمعة إنه ما دام الضحايا كلهم من الحي نفسه فحتمًا أن القتلة من الحي أيضًا، بل تربط بينهم وبين الضحايا علاقة ما.

هتفَ "معتز" وقد بدأ يستعيد توازنه:

- إنه لكلام خطير.. فلو فكَّر رجال الشرطة بطريقته لتوصلوا إلينا.

ردَّد "رءوف" في ألمٍ:

- لماذا أقحمتَ نفسك في هذا الموضوع يا شيخ "حسن"؟ لماذا؟!

ردَّد "همام" في جمود وقد لمع بعينيه بريقٌ جنوني عجيب:

- لقد حفر قبره بيده يا رفاق.

تطلع إليه الأصدقاء في ذهولٍ، وهتفوا جميعًا في آن واحد:

- ماذا تعني يا "همام"؟!

ردَّ عليهم وهو ينهض من مكانه، وقد تضاعَفَ بريق الجنون في عينيه:

- أعني أنني سأعدُّ له من الآن حفرة جميلة في سرداب هذا البيت.

لم يتفوَّه أحدهم بحرف بعد عبارته..فقط انعقدت حواجبهم في ذهول..نعم.. ذهول يصلُ لحد الغضب!

***

(٣٧)

عاد الشيخ "حسن" إلى وعيه، فوجَدَ نفسه مُقيَّدًا على الحائط، ومربوطًا في القيود بإحكامٍ شديد.. أخذ يهزُّ رأسه في ذهول، والصورة تتضح أمامه شيئًا فشيئًا، وتقع عيناه على صور الضحايا المعلقة على الحائط فهتف وهو يتطلع إلى الأصدقاء الذين يقفون حوله في نصف دائرة:

- مستحيل.. مستحيل.. أنتم وراء كل ذلك؟!

ردَّ "همام" في جمود:

- نعم يا شيخ "حسن".. أنت على صواب.

هتفَ الرجل وهو يكاد يُجنُّ:

- لماذا؟! لماذا بحقِّ الله عليكم؟

هتفَ "همام" وقد تضاعَفَ جمود ملامحه:

- نُقيمُ العدل.

صرخَ الشيخُ "حسن" بذهول:

- العدل! أنتم تُقيمون العدل؟! لماذا؟ وبأي حق؟ ومَن تظنون أنفسكم؟!

ردَّ "كمال" في هدوء:

- إننا بشر يا شيخ "حسن"..بشر مثل كل الناس، ولكننا جرعنا من كؤوس الذُّل حتى الثمالة.

"معتز" يستطرد في ثورة:

- أردنا أن نعطي كُلَ ذي حَقٍّ حقَّه بالعدل، وأن نُعيدَ الأمور لمجراها الطبيعي.

الشيح "حسن" يصرخُ وهو لا يصدق ما تسمعه أذناه:

- أيُّ عدل أيها التعساء؟ ومَن أعطاكم هذا الحق؟

"رءوف" يهتف بألمٍ لا يخلو من تردد:

- لـ.. لقد سئمنا ظُلمَ الإنسان لأخيه الإنسان..أردنا أن نقضي على عصر العبودية..عصر السادة وعصر العبيد.

ردَّ عليهم الشيخ "حسن" وقلبه يتمزقُ ألمًا:

- قال الحق في كتابه عز وجل: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ صدق الله العظيم.

ردَّ عليه "همام" في ثورة:

- لقد جعلنا المولى - عز وجل - درجات ولم يأمرنا أن يسقي بعضُنا الذُّلَ لبعضٍ بل..بل جعلنا سواسية يا شيخ "حسن".

التقط "صلاح" طرف الحديث واستطرد قائلًا:

- نعم يا شيخ "حسن".. إن مجتمعنا هذا ظالم.. ظالم.. يحتاج لمن يُقيم العدل فيه.

قلّب الشيخ "حسن" عينيه في وجوههم، ثم ردَّد:

- قال الحق في كتابه عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ... ﴾.

صرخَ "معتز":

- الله سبحانه وتعالى من صفاته أنه العدل ونحن نقيم عدل الله في الأرض.

- مَن أعطاكم هذا الحق؟! لقد جعلنا المولى - عز وجل - درجات حتى نرجع لبعضنا البعض فيما يجد علينا من أمور وإلا..وإلا تحولنا لحيواناتٍ في غابة.

يهتف "كمال" في حدة:

- وإذا كان القائمون على العدل ظَلَمَة؟!

- وله في ذلك حِكمة.

يرد "صلاح" بثورة:

- أيُّ حكمة يا شيخ "حسن" في أن يعيث رجل حيوان مثل "غازي" الفتوة في سكان الحي بطشًا من أجل أن يغتصب قوت أولادهم ظُلمًا وعُدوانًا؟

يواصل "رءوف" هو الآخر صارخًا:

- ورجل مثل "عزمي حافظ" الذي يدفع بوالدي إلى السجن لا لشيء إلا لأنه رفضَ مُشاركته أعماله غير المشروعة ويغضب الله.

"معتز" يستطرد وجسده ينتفض في شدة:

- وعمي.. عمي أخو والدي الشقيق الذي اغتصب حقنا في محل والدي مصدر رزقنا الوحيد.

يصرخ "كمال" وعلى ملامحه غضبٌ شديد:

- و"فاتن" حبيبتي التي دفعها القهر والظلم السائدان بالمجتمع لأن تُلقي نفسها إلى التَّهلُكة وتتزوج إنسانًا حقيرًا لا تعرفه، وهي الآن في عِداد المفقودين.

يلتقط "همام" طرف الخيط مُواصلًا بالجمود نفسه الذي يُميِّزُه:

– أم البلد وقوانينها التي لا تخدمُ إلا واضعيها..إننا جميعًا من حَمَلَةِ المؤهلات..ولم نعثر على فرصة عمل مناسبة حتى الآن..حتى ضجَّت بنا الطُّرق..وازدحمت بنا المقاهي..ولم نعد نستطع حتى أن نتنفس.

ظهر التأثُّر على وجه وصوت الشيخ "حسن" لكلمات "همام" فتطلع إليهم لحظة في إشفاق ثم قال:

– يقول الحق في كتابه عز وجل: "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم"..

نعم.. إن رحمة الله واسعة..وسبحانه وتعالى له تصاريف في مُلكِه..يجعل هذا ظالمًا وذاك مظلومًا حتى تأتي الآخرة فيُثيب هذا ويعاقب ذاك...وأنتم لا بد أن...

قاطعه "همام" وهو يقترب منه وقد تضاعفت نظرة الجنون في عينيه مراتٍ ومرات:

– شيخ "حسن"..تأكَّد أنه من الصعب علينا أن نفعل ما سنفعل..ولكن لا بد أن نحمي أنفسنا – لا من أجل أنفسنا – ولكن من أجل هدفنا النبيل الذي نسعي إليه..العدالة.

صرخَ الشيخ "حسن" وهو غير مُصدِّق:

– هل.. هل ستقتلونني؟!

"همام" في برود وهو يتناول نبوته:

- مع شديد أسفنا.

تخفُت الأضواء تدريجيًّا، والأصدقاء يتجهون نحو نبابيتهم المعلقة على الحائط، وصوت الموسيقى الباعثة على التوتر يرتفع مع صراخ الشيخ "حسن" وهو يقول لهم:

- ارجعوا لعقولكم أيها التعساء.. بأي وجه ستقابلون ربَّكم؟

في اللحظة نفسها التي يقف فيها الأصدقاء حوله في نصف قُطرٍ الذي صار يضيق حول الشيخ "حسن" رويدًا رويدًا فراح يُردِّدُ:

- "ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون ".. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

يغرق المكان في الظلام التام.. الأشباح تتحرك.. ترتفع النبابيت.. صرخات تتردد ثم.. ثم يغرق المكان في البئر نفسها..بئر الصمت العميق!

***

(٣٨)

اتجهت "سامية" في غضبٍ وأغلقت الكاسيت التي كانت ترقص على الموسيقى المنبعثة منه أمام الأصدقاء داخل البيت المسكون حين لاحظت شرودهم وعدم اهتمام أحد بها أو برقصها، وألقت جسدها بجوار "همام" غاضبة، فهتف بها في شرود - وهو يتابع رفاقه - قائلًا:

- لماذا توقفتِ عن الرقص؟

عقدت ما بين حاجبيها في غضبٍ ولم ترد، ولم يهتم "همام" بسماع ردِّها أو الإلحاح عليها لمعاودة الرقص، أخذ يتطلع لرفاقه وقد ألقى كل منهم جسده في أحد الأركان وعلى وجوههم كل بؤس الدنيا وشقائها وحزنها، أشار إلى "سامية" فصبَّت له كأسا وناولته إياها فجرعها مرة واحدة وهو يقول لرفاقه:

- ما بكم اليوم يا رفاق؟

هتفَ "معتز" وهو يُلقي إليه إحدى الجرائد:

- هل قرأتَ الصحف؟ لقد أصبحنا حديث المجتمع!

"رءوف" يقول بألمٍ:

- الجميع يتحدث عن القتلة.. عن السفاحين!

واستطرد "صلاح" ساخرًا:

- وفي جريدة أخرى أطلقوا علينا إرهابيين!

ألقى "همام" الكأس التي بيده وحطمها أرضًا في عنف وراح يصرخ:

- الآن أصبحنا قتلة وسفاحين وإرهابيين! أين كانوا كل تلك السنوات؟ أين كانوا عندما ضجَّت منا الطرق وازدحمت بنا المقاهي؟

"معتز" يواصل في غضبٍ هو الآخر:

- أين كانوا عندما سيطر علينا اليأس؟!

"رءوف" يواصل وألمه يتزايد:

- عندما تحولنا لقتلة وسفاحين.

"كمال" بصوت تملؤه الحسرة:

- عندما ودعنا القيم والأخلاق والمبادئ.

"سامية" تستطرد بمرارة مختلطة بالدموع:

- عندما باع أخي جسدي وقبض الثمن.

يضحكُ "صلاح" في جنون وهو يشير إلى خبرٍ بإحدى بالجرائد:

- انظروا.. ماذا يقول هذا الخبر. إنه ينفي وبشدة أن نكون من حملة المؤهلات أو..أو نكون قد حصلنا على قدر ولو ضئيل من التعليم، وأننا

لن نكون سوى شرذمة من الجهلة الذين وقعوا تحت تأثير بعض الفئات المندسة.

"معتز" يضحك في جنون وهو يشير إلى خبر آخر:

- وانظروا إلى هذا الخبر أيضًا.. إنه يؤكد أنها مسئولية الأسرة والبيئة التي نشأنا فيها وأننا..وأننا ما إلا حشرات يجب أن تُسحق بالأقدام قبل أن تصل سمومها لباقي أفراد المجتمع و..

يقاطعه "كمال" قائلًا وهو يجرع كأسه التي أعدتها له سامية:

- إنهم يضحكون على أنفسهم يا رفاق! يخشون الاقتراب من لب القضية..فضلوا أن يسبحوا هناك على السطح بعيدًا عن الأعماق خشية أن تحرقهم نار الحقيقة.

يصبُ "همام" لنفسه كأسًا أخرى وهو يتطلع إليه لحظات في جنون ثم يجرعها دفعة واحدة قائلًا:

- كفى يا رفاق.. كفى.. ولا تُقلِّبوا علينا المواجع..وتأكدوا أنهم سيندمون..نعم.. نعم سيندمون..لن يهنؤوا لحظة واحدة بمقاعدهم.. ستتحول إلى جمرات من النار.. سوف ينهش القلق والرعب والخوف عظامهم.

قال "همام" ذلك ثم صمتَ لحظةً تطلع فيها إلى صور ضحاياهم المعلقة صورهم على الحائط ثم صرخ في رفاقه وهو يلوح بكأسه الفارغة:

- الموت للخونة.. الموت للظلمة..

الأصدقاء يحذون حذوه حيث يهتفون وراءه وهم يلوِّحون بأيدهم وكئوسهم في غضب في حين كانت "سامية" تُشعل سيجارتها المُطعَّمة بالحشيش وتنفث دخانها في قوة:

- الموت للخونة.. الموت للظلمة..

يصمتُ "همام" ثم يُتابع وقد جحظت عيناه في جنون:

- اهتفوا يا رفاق..اهتفوا واملؤوا قلوبكم بالحماسة..لقد اخترنا طريق العدالة..طريق الموت لكل ظالم..نعم.. نعم سنجعل من هذا البيت مقبرة لكل الظالمين..وسنفعل بهم ما فعلناه مع عزمي "حافظ" و"غازي" و"راضي"...سنأتي بهم.. ونقتلهم وندفنهم في سرداب هذا البيت و...

وفجأة..انطلقت تلك الصرخة..صرخة ملؤها الرعب والفزع..صرخة انطلقت من خلف نافذة صغيرة وحيدة بصالة البيت وتطلُّ على الشارع الرئيسي..وفي لحظات كان الأصدقاء الخمسة ينتزعون نبابيتهم المعلقة على الحائط ويندفعون خارج البيت حيث مصدر الصرخة..وصرخَ "معتز" في جنون:

- "تامر"؟! أخي! مستحيل.. مستحيل!

***

(٣٩)

صرخ "معتز" في أخيه "تامر" الذي كان جسده يرتعد بشدة، بعد أن دخلوا جميعًا إلى صالة البيت مرة أخرى - وقد غادرتهم "سامية" لبيتها بناءً على أمرٍ من "همام" - والأصدقاء يحيطون بهم في غضب وذهول في آن واحد:

- "تامر".. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

يهتف " تامر" في رعب وكل أجزاء جسده ترتجف بشدة:

- لقد لعبت الشكوك والظنون برأسي لكثرة غيابك وتأخرك يوميًّا إلى ما بعد الفجر، وظننتُ أنكَ قد تورطتَ في أمر ما، فخرجتُ وراءك أراقبك ليطمئن قلبي وجئتُ إلى هنا، وسمعتُ كل شيء... كل شيء...

جحظت عيون الأصدقاء في جنون في حين هتف "معتز" من بين دموعه التي سالت على خده:

- لماذا يا "تامر"؟ لماذا؟

رد "تامر" وقد انهمرت دموعه على خده هو الآخر:

- أنا وأمك ليس لنا سواك يا معتز وكان يجب أن أطمئن عليك ولكن..ولكن لماذا تقتلون الناس؟!

صرخَ "معتز" في جنون وهو يهزُّه بشدة:

- اصمت.. اصمت ولا تذكر هذا الكلام مرة أخرى..هل تسمع؟

الشاب الصغير بتصفَّحُ وجوههم في رعبٍ فيربت "معتز" على كتفه قائلًا وهو يمسح دموعه:

- اسمعني جيدًا يا "تامر"..ستذهب الآن وترجع للبيت وتنتظرُني هناك..والكلام الذي سمعته من رواء النافذة عليك أن تنساه تمامًا..هل تسمع؟ يجب أن تنساه تمامًا.

صمتَ "معتز" لحظة تتطلع فيها لوجوه رفاقه الشاحبة فالتفت لأخيه مرة أخرى وقال له:

- "تامر"..أريدُ منكَ وعدًا بأنكَ لن تذكر شيئًا ممَّا رأيتَ أوسمعتَ هذه الليلة.

ردَّ "تامر" وجسده ما زال يرتجف:

- أعدُك يا أخي.. أعدك.

ابتسم "معتز" قائلًا لأخيه وهو يربت على كتفه:

- إذًا هيا بسرعة لتخرج من هنا وتعود من حيثُ أتيتَ.. هيا.

تحرَّك "تامر" في رعب، فإذا بهمام يقطع عليه الطريق قائلًا وملامح الشيطان تتراقصُ على وجهه:

- إلى أين؟!

ردَّ "معتز" بذهول:

- سيخرج يا "همام"... سيعود من حيث أتى!

هتفَ "همام" بجمود:

- ومَن يضمن لنا صمته؟

صرخَ "رءوف" باستنكار:

- ماذا تعني يا "همام"؟!

يهتفُ "همام" بالجمود نفسه:

- أعني أن رقابنا جميعًا أصبحت مُعلَّقةً بأي حرف يخرج من بين شفتي هذا الفتى الصغير.

صرخَ "كمال":

- أفصحْ يا "همام".. ماذا تعني؟!

"همام" يرد وقد تضاعَفَ الجمود الذي يُميِّزه:

- أعني أنه من الغباء أن نترك هذا الفتى يخرج من هنا.

"معتز" يُتابع الحوار في جنون في حين يهتف "صلاح":

- أتعني أن نحتجزه معنا هنا لنضمن سكوته؟

تابَعَ "همام" في جنون:

- ومَن يضمن لنا عدم هروبه؟

يصرخُ "معتز" غير مُصدِّقٍ ما يرمي إليه "همام":

- "همام"! أتعني أن....

قاطعه "همام" بالجنون نفسه:

- نعم يا "معتز".. أعني أن نعد له حفرة في سرداب هذا البيت.

جحظت عينا "معتز" وهو يصرخ في وجهه:

- أتقتلُ أخي يا "همام"؟!

ردّ عليه "همام" بصوت بدا عميقًا:

- حتى نعيش جميعًا في سلام.

تضاعف جحوظ عيني "معتز" في جنون وهو ينقل بصره بين أخيه - الذي كاد يتوقف قلبه عن النبض في رعب - تارة وبين همام تارة أخرى، ثم ألقيى نظرة على أصدقائه الذين يتابعون الموقف وقد شلّت الدهشة حركتهم فبدوا كأنهم تماثيل قُدّت من الصخر وانتزع نبوته فجأة صارخًا:

- على جثتي يا "همام".. هل تسمع؟ على جثتي أن يُمسَّ أخي بسوء.

تطلع إليه "همام" ساخرًا وهو يسحب نبوته هو الآخر ويقول:

- في هذه الحالة سأعدُّ حفرتين.. حفرتين يا " معتـز"... هـا هـا.. حفرتين..

في تلك اللحظة تخفُت الإضاءة ويرتفع صـوت الموسـيقى الباعثـة علي التوتر مع الأشباح التي تتحرك ثم يعود الهدوء والصمت يسيطران على المكان..يستيقظ الأصدقاء من حالة الجمود والـشلل المؤقـت التـي سيطرت عليهم ليفاجؤوا بهام يقف أمامهم ونبوته الملوث تتقـاطر مـن الدماء فوق جثتي معتز وأخيه اللذين فارقا الحياة..

كان رءوف أول من أجبر لسانه على الـتخلص مـن الجمـود الـذي سيطر عليه، وراح يصرخ في وجه همام قائلًا:

- ماذا فعلتَ أيها التعس؟! ماذا فعلتَ؟

ثم صرخ من بعده صلاح وهو يتطلع لجثة رفيق عمره وأخيه:

- أنت مجنون! مجنون!

كمال هو الآخر يصرخ وقلبه يتمزق:

- مستحيل أن تكون بشرًا.. مستحيل..

رد عليهم "همام" في جمود والملامح الشيطانية تتراقص على وجهه:

- لقد فعلتُ ما فعلتُ من أجلنا جميعًا يا رفاق..لقد اخترنـا طريـق العدالة..وهو طريق وعر لا بد وحتمًا سيكون له ثمن.

ثم صمتَ لحظة تطلع فيها لجثتي معتز وأخيه قائلًا:

- وهذا هو الثمن..نعم.. معتز وأخوه هما الثمن..ثمن الطريق الذي اخترناه بمحض إرادتنا..طريق العدالة.

راح رءوف يهتف وهو يبكي في مرارة:

- ولكن "معتز" صديق عمرنا!

ردَّ "همام" بالجمود نفسه وكأن قلبه خلا من المشاعر:

- وصديقي أنا أيضًا.. ولكن ماذا نفعل؟ كان يجب أن نضحي من أجل تحقيق هدفنا.

صرخَ "صلاح" في ثورة:

- ولماذا يدفع معتز الثمن؟!

- هذا قَدَرُه.

ردَّ "رءوف" بذهول:

- قدره! أأنت الذي قررتَ ذلك؟ وبأي حقٍّ؟!

رفعَ "همام" نبوته الملوث بالدماء وقال:

- لأنني القائد هنا.

هتفَ "كمال" بغضب لا يمكن وصفه:

- القائد! أنتَ لست القائد، ولكننا أعطيناك الحق في توجيهنا.

ردَّ "همام" وقد انعقد حاجباه في غضب:

- أنا صاحب الفكرة و..

قاطعه "رءوف" صارخًا:

- فلتذهبْ أنتَ وفكرتُك إلى الجحيم.

ردَّ عليه "همام" ببرود:

- ماذا تعني؟

- أعني أنني قد سئمتُ تلك اللعبة ولا بد أن تنتهي فورًا.

استند صلاح بظهره إلى الحائط قائلًا بمنتهى الألم:

- نعم يا "همام".. رءوف على حقٍّ؛ لإننا وصلنا لطريق مسدود.

استطرد "كمال" قائلًا:

- نعم.. وسيظل مقتل "معتز" يُطاردُنا إلى الأبد.

تطلَّعَ "همام" إلى نبوته قائلًا بغموض:

- وما الحل في رأيكم؟

ردَّ عليه "رءوف" بحسم:

- أن نترك ما نفعله ونعود لحياتنا الطبيعية.

عَقَدَ "همام" ما بين حاجبيه وهو يقول:

- والقضية؟

صرخ "كمال" في وجهه قائلًا:

- أي قضية يا "همام"؟! أتضحكُ علينا أم على نفسك؟ لقد تحوَّلنا لشياطين..نعم.. نعم شياطين وأنتَ الشيطان الأكبر.

صرخَ همام في وجوههم بغضب:

- أتريدون أن تتخلوا عني؟

ربت "صلاح" على كتفه قائلًا:

- لا يا "همام" بل نعود إلى الحق.

واستطرد "رءوف" مواصلًا:

- نعم يا "همام" ونحافظ على ما تبقَّى من أدميتنا.

وضعَ "همام" عينيه بالأرض وقال في استكانةٍ:

- لا يا رفاق.. لا تجعلوا مقتل "معتز" يحول بينكم وبين هدفكم الأسمى ثم..ثم هل نسيتم ما حدثَ لكم؟ و..

قاطعه رؤف بألمٍ:

- لا تؤثِّر فينا يا "همام"؛ فقد اتخذنا القرار وانتهى الأمر.

تطلع إليهم "همام" لحظاتٍ ثم تبدلت نظرة الخضوع والاستكانة بعينيه إلى غضبٍ رهيب قائلًا وهو يلوح بنبوته في وجوههم:

- لا يا رفاق.. لا..توقفكم هنا هو المستحيل بعينه.. لقد دخلتم اللعبة برغبتكم ولن تخرجوا منها إلا برغبتي أنا..هل تسمعون؟.. برغبتي أنا.

هتفَ كمال في ذهول:

- ماذا تعني يا "همام"؟

لوّح بنبوته في وجوههم قائلًا والملامح الشيطانية تتراقص فوق وجهه:

- أعني أن من أراد منكم أن يتخلى عني الآن فليتقدَّمْ.

وصمتَ قليلًا ثم استطرد بجنونٍ:

- وسأعدُّ له حفرة بجوار "معتز" وأخيه.

ردَّ "صلاح" وهو لا يصدق ما تسمعه أذنه:

- أتريد قتلنا يا "همام"؟!

تطلع "همام" إلى عيونهم ثم قال ببرود:

- معذرة يا رفاق.. لقد وصلنا لمرحلة صعبة ولا بد أن أعرف مَن معي ومن عليّ.

أخذ الثلاثة يتطلعون إليه، وصدورهم تعلو وتهبط، ثم انفصل عنهم "رءوف" قائلًا وهو يقف بجوار همام:

- نعم يا رفاق.. "همام على حقٍّ.. ويجب أن نعرف من معنا ومن ضِدَّنا.

ردَّ كمال بحيرة:

- ماذا تقصد يا "رءوف"؟!

هتفَ "رءوف" وقد اكتسبت ملامحه غموضًا وجمودًا لم يعهده فيه زملاؤه:

- أعني أننا منذ البداية ونحن نعرف أن طريقنا الذي اخترناه صعبٌ، ولا بد أن يكون له ضحايا..

وها هو "معتز" قد ذهب..إذًا يجب أن نمضي ونواصل طريقنا من أجل هدفنا الأسمى.

اتجه الاثنان ووقفا بجواره بجانب "همام" وقالا في صوتٍ واحد:

- نعم يا "رءوف".. "همام" على حق، ويجب أن نمضي في طريقِنا.

ألقى "همام" نبوته أرضًا وضحك في جنون وهو يتناول كأسه ويجرعها مرة واحدة:

- هل تأكدتم الآن أنني على حقٍّ يا رفاق... على حق.. ها.. ها..

تطلع إليه الثلاثة بغموضٍ وهم يتطلعون لكئوسهم وهتفوا:

- نعم يا "همام".. أنتَ على حقٍّ..على حق أيها الـ.. القائد!

***

(٤٠)

عربة فاخرة سوداء ذات زجاج أسود فاميه تقفُ بجوار الرصيف المقابل للمقهى وتُراقِبُها العيون في قلقٍ وترقُّبٍ، ينزل منها شابٌّ على مشارف الأربعينيات من عمره يرتدي نظارة سوداء زادت من غموضه، عيناه تتطلعان إلى مباني المنطقة وهو يتناول هاتفه ليُجري مُكالمةً سريعة، يتوجَّه بعدها إلى المقهى سائلًا عن المعلم توفيق الذي ينهض مُستقبلًا إياه بجسده الضخم ويدور بينهام حوار غير مسموع لحظات يخرجان بعدها معًا من المقهى..

الرجل ذو النظارة السوداء يعود ليقف بجوار سيارته في حين يبتلع أحد المباني المُقابلة للمقهى المعلم توفيق الذي يعبر مدخله في خِفَّة وسرعةٍ لا تتناسب مع جسده الضخم، وما هي إلا دقائق معدودة حتى ينزل المعلم توفيق بصحبته أم فاتن تتعثر في ملابسها وهي تتمتم ببعض

آيات القرآن للتخلُّص من التوترالذي سيطر عليها وجعل قدميها غير قادرتين على حملها..

استقبلهما ذو النظارة السوداء وفتح لهما الباب حيث المقعد الخلفي للسيارة، في حين ركب هو بجوار سائق السيارة التي انطلقت بهم عبر شوراع القاهرة..بعد مسيرة لم تتعدَّ الدقائق العشر توقفت السيارة أمام أحد المباني التابعة لوزارة الخارجية، أم فاتن وهي تستقلُّ معهم مصعد ذلك المبنى تحاول أن تلتقط أنفاسها بصعوبة وقد سيطرت عليها ظنون وهواجس لا حصر لها فعادت مرة أخرى تُردِّد بعض آيات القرآن الكريم..الرجل ذو النظارة السوداء تركَهم أمام أحد المكاتب لما يقرب من الدقيقة خرج بعدها يدعوهم للدخول..مدّ المعلم توفيق ذراعه لأم فاتن تتكئ عليه وهو يطمئنها قائلًا:

– تفاءلي خيرًا إن شاء الله يا أم فاتن.

ثم دلف معها إلى الداخل فوجدا باستقبالهما وجهًا ما إن رآه المعلم توفيق حتى أحسَّ بالراحة وهو يهتف:

– حسين باشا! أخبرنا يا ولدي ماذا حدث بالله عليك.

استقبلهما حسين قدري في حفاوة ودعاهما للجلوس قائلًا:

– خيرًا بإذن الله يا معلم... تفضلا.

ألقت أم فاتن جسدها فوق المقعد هاتفةً:

- أخبرنا يا ولدي... هل توصلتم لفاتن؟

تطلع إليها حسين قدري من خلف نظارته الطبية في إشفاق وقال:

- نعم يا أمي... لقد توصلت الخارجية لمكان فاتن.

هوى قلب الأم بين قدميها وهي تردد:

- أهي بخير يا ولدي؟

صمتَ حسين قدري لحظات تغلب فيها على انفعاله ثم مدّ يـده في أحد الملفات التي أمامه وتناول منه مجموعة من الصور ثم انتقى إحداها وناولها إياهما قائلًا:

- أهذه صورة فاتن؟

هتفت الأم في شغفٍ:

- نعم يا ولدي.. صورتها.. صورتها.

خلع حسين نظارته الطبية وتناول منديلًا ورقيًّا من مكتبه مـسحها به ثم وضعها في مكانها فوق عينيه وقال:

- كيف تعرفتم إلى زوجها؟

لم يستطع المعلم توفيق أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك فهتف:

- أخبرنا يا ولدي... ماذا حدث بالله عليك؟

لم يرد عليه حسين، بل تناول مجموعة أخرى من الصور ثم فردها أمامهم..كانت مجموعة من الصور البشعة لجثة فاتن وقد فارقت الحياة..كانت الصور بلا عينين بعد أن تم انتزاعهما من مكانيهما..وكان هناك خيط كبير يمرُّ بمنطقة البطن بالكامل..

أخذت الأم تتطالع الصور بعينين بدتا خاليتين من كل أثر للحياة..وقد جحظت عيناها..وانحبس صوتها.. وتحجرت الدموع في عينيها..

يهتف حسين قدري بصوت يقطر أسًى:

- أثبتت تحريات الخارجية أن زوج فاتن كان عضوًا في أكبر شبكة دولية لتجارة الأعضاء البشرية.

صمت حسين لحظات ثم استطرد:

- والآن يجري تنسيق كامل بين خارجيتنا وخارجية تلك الدولة العربية لملاحقة ذلك المجرم والقبض عليه.

ظلَّ المعلم توفيق يبتلع ريقه بصعوبة وهو غير مصدق ما تسمعه أذناه في حين هتفت أم فاتن بعد أن أجبرت لسانها على النطق:

- لم أفهم بعد يا بني.. أين فاتن؟! أين ابنتي؟!

رد عليه حسين قدري بصوتٍ لا يدري كيف خرج من بين شفتيه قائلًا:

- البقاء لله يا أمي.

تطلعت إليه الأمُّ لحظات بنظرات بلا معنى وكانها لم تفهم بعد ما يقصده، ثم استجمعت كل ما تبقَّى لها من قوة بداخلها في صرخة واحدة:

- لا.... لا..

ثم هَوَتْ أرضًا!

***

(٤١)

ذاتَ ليلةٍ اشتدَّت فيها الرياحُ والأتربةُ كادت تصل إلى حَدِّ الصقيع الذي لم نعتدْه في مصر إلا نادرًا، هُرعت سامية إلى داخل البيت، وأقبلت على همام الذي كان بمفرده يدخن الحشيش ويجرع الخمر، وألقت جسدها المنهك بجواره فناولها همام كأسًا وهو يقول:

- اشربي هذا يا سامية سيبعث في جسدك الدفء.

تطلعت إليه مبتسمة وقد تهدَّلت خصلة من شعرها الناعم على جبينها، ثم تناولت الكأس وجرعتها، وأخرجت من بين طيات ملابسها كيسًا من البلاستيك فضَّته في حجر همام قائلة:

- وهذه الأموال ستبعث في جسدك الدفء أيضًا.

تطلع همام إلى الأموال الكثيرة بحجره قائلًا:

- ما كل هذا يا سمسمة؟!

تحسَّست خده وشفتيه بأصابعها قائلة وهي تتطلع إلى عينيه في ولـهٍ وعِشقٍ لا يوصف:

- لقد بِعتُ الغرزة التي كان يملكها عادل لا رحمه الله، وها هي الأموال كلها بين يديك، تسعون ألفًا بالتمام والكمال، افعل بها ما تشاء، افتح مكتب المحاماة الذي كنتَ تحلم به و...

قاطعها قائلًا وهو يتطلع للأموال في جنون:

- هل فعلتِ كل ذلك من أجلي يا سامية؟

اقتربت منه وراحت تعبث بأصابعها في شعر صدره قائلة:

- هل تعلم يا همام أنني منذ أن رأيتُك في غرزة أخي بعد عودتي من السفر وكل أحلامي في الدنيا قد اندمجت وصارت حلمًا واحدًا؟! هذا الحلم هو أنت..أنتَ يا همام..وكثيرًا ما كنتُ أحلم بيني وبين نفسي باليوم الذي نتزوج فيه.

صمتت لحظاتٍ تطلعت فيها إليه وكان ما زال يتحسس الأموال في جنون فالتصقت بجسده قائلة:

- ما رأيك يا همام؟

أخذ يتحسس الأموال بيد ويده الأخرى تتحسس شعرها الناعم الطويل وقال:

- فيمَ يا حبيبتي؟

- أن نتزوج يا همام ونترك تلك الحياة بعد أن نبيع هـذا البيـت هـو الآخر ونبدأ حياة جديدة بمكان جديد.

صمت لحظاتٍ يتطلع للأموال ثم قال بغموض:

- كما تشائين يا حبيبتي.. سنتزوج.

ما إن التقطت أذناها كلمتـه الأخـيرة حتـى ألقـت جـسدها عليـه وغابت معه في قبلةٍ طويلة، نهضت بعدها واقفة وهـي تعـدل ملابـسها قائلةً في سعادة:

- حسنًا سأذهب الآن وأعود إليك في الغد.

أمسك كفَّيها قائلًا:

- ولِمَ لا تقضين معي الليلة؟

ابتسمت قائلة وهي تتحسس يده بكفيها:

- قريبًا يا همام سأقضي عمري كله بجوارك بعد أن أكون زوجتك.

ثم تركته خارجة وهي تحلم بمرور الأيام القليلـة القادمـة ليتحقـق حلمها، في حين كان همام يجمع الأموال ويُعيـدها للكـيس مـرة أخـرى وقد قبض عليه بين ذراعيه في قوة وعيناه تتفحصان المكان، وتوقفتا عند صورة المعلم غازي، واتَّجه إليها ونزعهـا مـن مكانهـا ليكـشف خلفهـا فجوة بالحائط، وضع فيها الأموال ثم أعاد الصورة لمكانها مـرة أخـرى، ثم أشعل سيجارة نفّث دخانها في قوة وهو يقول بينه وبين نفسه ساخرًا:

– غبية... تريد أن تتزوجني! سامية أخت عادل حشيشة تتزوجني أنا.. أنا!

ثم صبّ لنفسه كأسا ألقى محتواها دفعة واحدة في فمه وقد احمـرت عيناه في جنون!

***

(٤٢)

سحابة هائلة من الحزن غلَّفت الحي بأكمله منذ أن عرفوا بقصة فاتن ومقتلها وبيع أعضائها بهذه الطريقة البشعة..جميع مَن بالحي سيطرت عليهم حالة من الغضب.. الحزن اعتصر القلوب.. العيون امتلأت بالدموع.. سيطرت على حلوقهم غُصة مرارة لا مثيل لها..وكان كل منهم في حاجة إلى مَن يواسيه..

نعم..فقد كان بداخل كلٍّ منهم شعور قوي بأنه فَقَدَ الابنة والأخت والصديقة والحبيبة..كان بداخل كلٍّ منهم نار..نار تريد أن تحرق..أن تدمر.. المهم أن يفعلوا أيَّ شيء.. نعم.. أي شيء يُهدِّئ من النار المستعرة بداخلهم.. والشيء الوحيد الذي اتفقت عليه عقولهم جميعًا أنه لا صمت بعد اليوم..نعم.. لم يعد للصمت مكان.. لا بد أن هناك مسئولًا عمَّا حدث لفاتن..ولا بد أن يدفع الثمن..

هكذا هتف الصحفي الشاب حاتم منير بملء فيه وأمام كل رواد المقهى في عز الظهر..

- "هناك مسئول خلف ما حدث لفاتن ولا بد أن يدفع الثمن".

التفت حوله، فوجد الكثير من العقول والآذان تُصغي إليه، وعيونهم ممتلئة بالدموع – على غير عاداتهم من قبل حين كانوا يسمعونه يتحدث - فعلًا صوته مستطردًا:

- نعم.. إن ما حدث لفاتن لا يمكن أن نحمّله لطمع فتاة جرت وراء المجهول من أجل مستوى اجتماعي أفضل..السؤال: ما الذي يدفع فتاة في تعليم فاتن وتربيتها وجمالها أن تقبل بهذه الزيجة المريبة؟ والموضوع لا يخص فاتن وحدها..فما حدث لها ما هو إلا نموذج لما حدث وما يمكن أن يحدث لغيرها من الفتيات.. نعم..إن فاتن رشاد عنوان..عنوان لكل فتاة قهرها الذل والتخاذل والإهمال..عنوان لكل مسئول جرى وراء متع الدنيا وملاذها ونسيَ القيام بالواجب المنوط به..عنوان لكل راعٍ أهمل رعيته..

و... - " فاااااااااااتن ".

صرخة هائلة يتردد صداها في أرجاء الشارع والحي بأكمله..صرخة هائلة جعلت كل مَن بالمقهى ينتفض من مكانه مذعورًا..صرخة هائلة انطلقت من حنجرة كمال بكل ما تبقَّى بداخله من قوة منذ أن سمع الخبر..الجميع تطلعوا إليه في ألمٍ وحزنٍ وحسرةٍ..وكم ودّ كل منهم أن يواسيه..ولكن.. ولكن كيف؟

كيف يواسونه وكلٌّ منهم في حاجة لمن يواسيه؟ أول مَن تحرَّك من مكانه كان المعلم توفيق الذي احتواه بين أحضانه وهو يهتف من بين دموعه:

- وحّد الله يا كمال.. وحّد الله يا بني و...

لم يستطع الرجل أن يتماسك أكثر من ذلك فانخرط في بكاء حارٍّ وجسده يهتزُّ في شدة وكاد يهوي أرضًا لولا أن تلقاه أحمد راغب بين ذراعيه وأجلسه فوق مقعده قائلًا من بين دموعه:

- اجلس يا معلم... اج.. و...

انخرط هو الآخر في بكاء شديد..نعم.. فالشيء الوحيد الذي يجمع بينهم الآن هو الدموع..والدموع فقط!

***

(٤٣)

الأمطار بالخارج تهطل في غزارة وتضرب بنافذة البيت في قوة، وقد أغرقت الشوارع في حين كان همام بصحبة رءوف وصلاح يدخنان الحشيش ويجرعان الخمر، تطلع إليهما همام في صمت ثم نظر إلى صورة غازي حيث أخفى الأموال خلفها، وقال في نفسه من بين سُحب الدخان الأزرق التي تندفع من فمه في قوة:

– غدًا يا همام تتحقق كل أحلامك..غدًا تأتي إليكَ سامية بالأموال بعد أن تبيع هذا البيت..ويكون معك مبلغ كبير..مبلغ لم تكن تحلم في يوم من الأيام أن تمتلكه..ثم تأخذ كل الأموال وتختفي من حياة هؤلاء الأغبياء والحمقى إلى الأبد و...

وفجأة..تأتي طرقات سريعة على باب البيت، وصلاح ورءوف يتطلعان للباب في توتر في حين نهض همام قائلًا لهما:

– لا داعي للقلق.. إنها سامية.

قال ذلك ثم فتح الباب وفغر فاه في ذهول وهو يتطلع إلى فتاة جميلة بيضاء – سبحان من أبدع وصور – ترتدي ثوبًا قصيرًا لا يصل لركبتيها قد التصق بجسدها بفعل الأمطار فزاد من فتنتها وجمالها.. هتفت الفتاة في رقَّة يشوبها التوتر:

– آسفة.. آسفة جدًّا، ولكن سيارتي تعطَّلت في هذا الجو الممطر ولا أجد مَن يُساعدني.

زاد ارتباك الفتاة حين لم تتلقَّ ردًا من همام الذي كان ما زال يتطلع إليها ويتفحص جسدها مِن شعرها لقدمها.. فهتفت:

– مِن فضلك..

خرج صلاح في تلك اللحظة مِن وراء همام وقال لها:

– انتظري هنا وسأفحص سيارتك فلديّ بعض الخبرة.

تناول منها مفتاح السيارة وتركهما في حين هتف رءوف بالفتاة التي ما زالت تقف بالباب حائرة مترددة:

– تفضلي حضرتك.. أظنُّ أنكِ بحاجة إلي كوب من الشاي الساخن في هذا الجو الممطر.

تطلعت إليه الفتاة مبتسمة وقد بدأت تشعر ببعض الاطمئنان وهي تقول:

- متشكرة جدًّا، لا داعي للتعب.

ابتسم رءوف وذهب ليعدَّ الشاي في حين انكمشت الفتاة بجسدها فوق أحد المقاعد في توتر من نظرات همام التي ما زالت تتفحص جسدها في وقاحة، وأخيرًا هتف همام:

- ما الذي أتى بكِ في هذا الطريق في هذا الوقت المتأخر؟

ردت الفتاة في هدوء وهي تحاول الهروب من نظراته:

- كنتُ في رحلة مع أصدقائي بالإسكندرية، ولكن حدثَ أمرٌ جعلني أقطع الرحلة وأعود بسيارتي.

هتفَ همام في نفسه وعيناه تتفحصان ساقيها البضَّتين:

- وهل وراءكم غير الرحلات؟!

تناولت الفتاة الشاي الساخن مِن رءوف قائلة وعلى شفتيها ابتسامة تفوح رقة وأنوثة خلبت قلب همام وعقله:

- متشكرة جدًّا.. ولكن.. ولكن ماذا تفعلون في هذا المكان المنعزل؟

ردَّ رءوف في هدوء:

- في الحقيقة نحن لا نحب الضوضاء، فقررنا أن نعيش هنا.

أطلقت الفتاة ضحكة أسالت لعاب همام، وقالت بعد أن تناولت رشفة من الشاي دفعت الدفء بجسدها:

- من الضوضاء للسكون القاتل مرة واحدة..

ثم استطردت متسائلة وهي تتطلع للصور المعلقة بالحائط:

- وما كل هذه الصور؟!

تردد رءوف قليلًا فقال همام وعيناه لا تفارقان ساقيها البضَّتين:

- أفراد عائلتنا الكبيرة.

تطلعت إليه الفتاة في ضيق ثم نظرت في ساعتها وقالت:

- لقد تأخر الأستاذ الذي يفحص سيارتي.

نهض رءوف قائلًا:

- سأذهب لأراه.. لا تقلقي.

خرج رءوف في حين هتف همام ببرود:

- كنتِ في رحلة مع الأصدقاء؟!

- نعم.

- وما الذي حدث بالرحلة جعلكِ تتركين أصدقاءك ولا تنتظرين طلوع الصباح؟

- ماذا تقصد حضرتك؟!

اقترب منها همام في جنون وعيناه لا تفارقان ساقيها البضتين قائلًا:

- أعني أن فتاة لها مثل هذا الجسد الأبيض الجميل..وهذا الثوب

القصير..خاصة لو كانت من طبقتكم..طبقة السادة..أو من يظنون أنفسهم سادة..تجعل المرء يفكر في أشياء كثيرة.

انكمشت الفتاة علي نفسها أكثر وهي تهتف به في رعبٍ:

- ماذا تقصد حضرتك؟ وماذا ستفعل؟

هجمَ عليها همام في جنونٍ يعتدي عليها بعد أن خلع سترته:

- كنتُ أظن أن عمري سيمضي دون أن أتذوق هذا اللحم الأبيض.

الفتاة تصرخ في رُعبٍ هاتفة:

- أرجوك.. لا..لا.. أرجوك.

ارتفعت ضحكاته في جنون وهو يواصل هجومه عليها.. الفتاة ما زالت تصرخ وتصرخ..في تلك اللحظة يُفتح الباب ويظهر على عتبته صلاح ورءوف وقد جذبهما صراخ الفتاة ومِن خلفهما كان كمال – الذي عاد لتوه – وسامية التي انعقد حاجباها في جنون حين رأت ما يفعله همام..الأصدقاء الثلاثة يتطلعون لهمام في جنون وغضب غير مصدقين ما تراه أعينهم..سامية تصرخ في جنون:

- حيوان.. حيوان..

ولم تشعر بنفسها إلا وهي تجذب نبوتًا وتهوي به على رأس همام الذي وقع أرضًا ودماؤه تسيل من رأسه..الأصدقاء يتطلعون إليه في

جمـود، ثـم يتوجهـون إلى نبـابيتهم وقـد جحظـت عيـونهم في جنـون، وراحوا يهتفون في صوت واحد ونبابيتهم تهوي على جسد همام:

- نذل.. حيوان.. حقير..

غرق جسد همام في بحيرة من الدماء وقد خمـدت حركتـه تمامًـا، في حين أطلقت الفتاة صرخة رعب هائلة تردد صداها في أرجاء المكـان... احتواها صلاح بين ذراعيه هاتفًا:

- لا تخافي، لقد انتهى كل شيء.

ظَلَّ جسد الفتاة يرتعد بـين ذراعيـه فاسـتطرد قـائلًا وهـو يناولهـا مفاتيح سيارتها:

- لا تخافي.. ها هـي مفـاتيح سـيارتك وسـتذهبين في سـلامٍ، ولا تنسي أننا فعلنا ما فعلنا لإنقاذك، ولا داعي لإبلاغ الشرطة.

خطفت الفتاة المفاتيح قائلة قبل أن تخرج:

- نعم.. نعم.. هو حيوان يستحق ما حدث.. أشكركم.. أشكركم كثيرًا.

هتفَ كمال وهو يتطلع إلى نبوته الملوث بالدماء:

- كان يجب أن يموت من البداية.

هتفَ رءوف من بين دموعه وهو يتطلع لجثة همام:

– كان يجب ألا ننساق وراءه من البداية.. ليس بهذا الشكل يتحقق العدل، وليس بهذه الطريقة ننال حقنا.

يهتف صلاح ساخرًا وقد انطلقت من بين شفتيه ضحكة مختلطة بالدموع:

– كنا نبحث عن العدالة... ها.. ها..العدالة.

نهض رءوف قائلًا:

– والآن.. ماذا سنفعل بجثته؟

التفتَ إليه كمال وقال بغضب:

– كما تدين تُدان.. سنعد له حفرة بجوار قبر معتز وأخيه.

ظلت سامية تتابعهم وهم يحملون جثته وراحت تهتف من بين دموعها وقد تهدَّل شعرها الناعم فوق جبينها:

– حيوان.. حيوان.. لقد أعطيتُه كل شيء..أعطيته مالي وجسدي..وكنتُ على استعداد لأن أعطيه عمري ولكنه حيوان.. حيوان..مثل عادل حشيشة تمامًا.. لا فرق بينهما..همام وحشيشة واحد و....

– "سنذهب الآن يا سامية، ولن نعود ثانية".

فوجئت سامية بكمال يقول عبارته السابقة، وقد خرجوا لتوِّهم من السرداب وقد دفنوا همام، تطلعت إليهم لحظة ثم أخذت تتلفت حولها

في أرجاء المكان، وكأنها تبحث عن شيء ما، وقالت وعلى شفتيها ابتسامة:

- اذهبوا أنتم.. أما أنا فسأنتظره..سأنتظر همام!

***

(٤٤)

تطلَّع رواد المقهى إلى نشرة الأخبار بتلفاز المقهى الذي كان يذيع مقتطفات من خطاب رئيس الجمهورية الذي بثته كل القنوات ظهر هذا اليوم:

"والحقيقة أنني لم أكن أنتوي الترشُّح لفترة رئاسية قادمة، ويتبقَّى لي فقط ستة أشهر، سأعملُ خلالها على الانتقال السلمي للسُّلطة".

"إن الوطن يتعرض لأحداث عصيبة واختبارات قاسية من شباب استغلَّهم مَن سعى لإشاعة الفوضى".

"بعد أن تم حلُّ مجلس الشعب تم – أيضًا – قبول استقالة الحكومة والعمل على تشكيل حكومة جديدة، وكذلك تعيين نائب لرئيس الجمهورية الذي سيتحاور مع القوى السياسية كافة".

"هذا الوطن هو وطني مثلما هو وطن كل مصري ومصرية، فيه عشت وحاربت من أجله ودافعت عن أرضه وسيادته ومصالحه وعلى أرضه أموت.. وسيحكم التاريخ عليّ وعلى غيري بما لنا أو علينا".

هتف أحمد راغب ساخرًا وهو يغلق التلفاز:

- بعد ثلاثين عامًا يطمع في ستة أشهر أخرى!

هتف المعلم توفيق من بين دخان شيشته:

- إنها ليست طابونة يا راغب ويجب أن يأخذ الرجل وقته ليرتب أوراقه.

هتفَ أحدُ رُوَّاد المقهى قائلًا بتأثُّر والدموع في عينيه:

- وماذا سيفعل أكثر مما فعل؟! لقد حلّ مجلس الشعب وأقالَ الحكومة!

وهتفَ ثانٍ:

- ووعد بإجراء انتخابات رئاسية بعد ستة أشهر..

ردّ ثالث:

- قال إنه يريد أن يطمئن على تسليم السلطة بطريقة سلمية آمنة.

هتف الأول:

- حين قال إنني سأموت على أرض مصر، وأدفن فيها، لم أتمالك نفسي، ووجدت الدموع تنهمر من عيني.

- "مخطئ مَن ظنَّ يومًا أن للثعلب دينًا".

التفت رواد المقهى لصاحب الصوت، فوجدوا الصحفي الشاب حاتم منير وعلى وجهه آثار تعذيب وكدمات، فقال له المعلم توفيق:

- ما هذه الإصابات كلها يا أستاذ حاتم؟

ردَّ حاتم منير في مرارة وقال:

- وغيرها الكثير مما تخفيه الملابس يا معلم!

ثم تناول مقعدًا وشاركهم جلستهم، فهتف به أحدُهم:

- مَن الثعلب؟ وماذا تقصد يا أستاذ حاتم؟

تطلَّع إليهم حاتم منير لحظاتٍ ثم قال:

- كلها مُسكِّنات.. هذا النظام لن يرحل إلا بالقوة...والشعب لن تنفع معه هذه الطريقة.. لقد استيقظَ الشَّعبُ ولن يرضى بالنوم ثانيةً.

في تلك اللحظة يسمع رُوَّادُ المقهى جلبةً وضوضاءً على مقربة من الميدان، مع صوت الشامي يدخل عليهم صارخًا وهو يلطم خديه:

- السيد حبيب اتقتل.

وقع عليهم الخبر كالصاعقة، وانطلقوا تجاه الميدان دون أن يفهموا كيف ولماذا قُتل السيد حبيب..

وعلى شفاههم جميعًا يتردد سؤال:

– مَن بلا قلب حتى يقتل السيد حبيب؟! مَن جرؤت نفسه على قَتْلِ الطِّيبةِ والنقاء والشهامة؟!

في الميدان وجدوا دائرتين من البشر، الأولى تحيط بالسيد حبيب وقد تلقَّى طعنة نافذة بالعنق وانقطعت شرايينه وسالت دماؤه بغزارة على أرض هذا الميدان العريق من ميادين القاهرة، وبجواره كان الشامي يكتم الدماء المندفعة بيده في محاولة لإنقاذ رفيق عمره، ودموعه الساخنة تغرق وجهه، وكان من حولهما الصراخ العويل والهواتف المفتوحة للاتصال بالإسعاف في محاولة أخيرة يائسة لإيقاف الدماء وإنقاذ الرجل الذي أحبوه جميعًا، في حين كانت الدائرة الأخرى تحيط بأحد الشباب الذي كان يصرخ وجسده يرتعد بشده:

– لم أكن أقصِد قتلَه.. عندما جاءت عربة الأنابيب حدث تزاحُم وأخذَ دوري في الطابور.. المطواة كانت لإرهابه فقط.. صدقوني.. لم أقصد قتله.

قال ذلك ثم أخذ يضرب رأسه بالرصيف ودموعه تنهمر في غزارة..

المعلم توفيق يُقبِلُ عليهم صارخًا وخلفه بعضٌ من ضباط الشرطة وأمنائها بمديرية الأمن الذين أحاطوا بالشاب القاتل:

– أفسحوا.. وليذهب كلٌّ إلى حاله.

وفي اللحظة نفسها تصل عربة الإسعاف، ونزل عمالها يفحصون السيد حبيب، ثم هزوا رؤوسهم في أسًى؛ مما يعني أن الروح قد فارقت

الجسد..الجميع تطلعوا إلى جثة السيد حبيب التي فارقت الحياة وانهالت دموعهم في غزارة، والشامي يصرخ وهو يهزُّ جسد رفيق عمره:

- اصحَ يا سيد... اصحَ يا أخي وحبيبي.

المعلم توفيق يقترب منه في موقف نادر لم يحدث من قبل، ويأخذ الشامي بين أحضانه هاتفًا من بين دموعه:

- كفى يا شامي.. كفى.

تصل زوجته ومن خلفها أولادها في اللحظة نفسها التي كان فيها العمال يحملون جثته للعربة وتهجم على الجثة صارخة:

- انتظر يا سيد.. أنا السبب.. أنا السبب..أنا التي طلبتُ منكَ تغيير الأنبوبة.. ليتك لم تسمع كلامي..وليت الأولاد ما أكلوا...ليتنا ما أكلنا يا سيد.

الابن الأكبر يتعلق بالعربة التي تحمل جثة أبيه صارخًا بصوت يمزق نياط قلوبهم ويقع أرضًا حين تتحرك العربة:

- أبي... أبي.

يُفاجأ وهو بالأرض بيد حاتم منير الصحفي ترفعه من الأرض، ثم راح يهزُّ كتفيه في قوة قائلًا والدموع في عينيه:

- انهضْ ولا تبكِ، وتخلّق بصفات الرجال..هل تعلم مَن السبب في موت أبيك؟

ونظر في وجوه المحيطين به وواصل صراخه قائلًا:

- السيد حبيب دفع حياته ثمنًا لأنبوبة بوتاجاز..والنظام الذي تساوي فيه حياة الإنسان أنبوبة بوتاجاز يجب أن يرحل..النظام الذي لا يعترف بحقنا في الحياة الآدمية يجب أن يرحل..ولا مكان للصمت أو الخوف بعد اليوم..هل تسمعون؟ هذا النظام يجبُ أن يرحل.

وصمتَ قليلًا تطلع خلالها إلى وجوههم، وتطلع إلى المباني العريقة التي تحيط بهذا الميدان على مقربة من مديرية الأمن بالقاهرة، ثم برقت عيناه في جنون وراح يصرخ:

- بالأمس فاتن رشاد دفعت حياتها ثمنًا لإهمال هذا النظام وجبروته...واليوم السيد حبيب يدفع حياته ثمنًا لأنبوبة بوتاجاز..وغدًا لا نعرف مَن سيدفع الثمن..إلى متى نظلُّ صامتين؟ لا صمت بعد اليوم..هيا..اهتفوا ورائي..فليرحل النظام.. فليرحل النظام..

الجموع مِن وراءه تردد بأصوات هادرة قوية وعيون دامعة:

- فليرحل النظام.

الأعداد تتزايد وتتزايد..الميدان يمتلئ عن آخره بجموع وحشود لا نعلم مِن أين أتت..صرخات حاتم منير ترتد في جنبات الميدان..صرخات الجموع المحيطة به تهزُّ سماء القاهرة..وجميعهم قد اتفق على هدف وحد..رحيل النظام..الجموع ما زالت تُردِّدُ وتردد وراء

حاتم منير..أصوات المعلم توفيق وأحمد راغب والشامي وابن السيد حبيب تشارك الأصوات الغاضبة الهتاف في طريقها للميدان:

- فليرحل النظام...

وفجأة..تنطلق رصاصة وسط الجموع الغفيرة..رصاصة تعرف هدفها جيدًا.. قلب حاتم منير..وبعد أن كان فوق الأعناق تهزُّ كلماته جنبات الميدان، فوجئ به الناس أرضًا والدماء تغرق صدره، وما زال يردد بخفوت وعلى شفتيه شبح ابتسامة باهتة:

- فليرحل النظام.. فليرحل النظام.

وتوقَّف قلبُه عن النبض..قلب حاتم منير..

وفارق الحياة بجسده ولكن روحه وكلماته ظلت وستظل ساكنة القلوب والعقول.. مع سقوط حاتم منير يتضاعف غضب الحشود مرات ومرات..أصواتهم تتردد في كل جنبات القاهرة، وقد ازدادت قوة وحماسة وهم يرفعون جثة حاتم منير..

- فليرحل النظام.....

النيران تشتعل ببعض المباني الحيوية، وقد ألقى بعضهم الزجاجات الحارقة عليها..طوب وحجارة تتساقط على المتظاهرين من أماكن شتى..رصاصات طائشة تحصد الأرواح والعيون..والحشود ما زالت تواصل طريقها حيث الميدان..ميدان التحرير.

***

(٤٥)

سامية وحدها بالبيت ليلًا تجرع الخمر وتدخن الحشيش، وقد تهدَّل شعرها فوق جبينها، وساء حالها بعد أن فارقها الأصدقاء وتركوها وأصرت هي على البقاء..تناولت نفسًا عميقًا من سيجارتها نفثت دخانه في قوة أتبعته بكأس جرعتها مرة واحدة وانطلقت من بين شفتيها ضحكاتٌ هيستيرية عجيبة مختلطة بالدموع وهي تهمهم:

- لقد فعلتُ كل شيء من أجله..أعطيته جسدي..وقتلتُ أخي..وبِعتُ الغرزة..وأعطيته المال..وكنتُ سأبيعُ هذا البيت أيضًا من أجله هو.

ثم صمتت فجأة وراحت تحملق إلى جدران البيت ثم استطردت في جنون:

- ولكن.. أين هو؟ أين همام؟

ووقفتْ مكانها في صالة البيت وعيناها تتفحصان المكان وتبحث عنه صارخة:

- همام..

وتحركتْ في بطء تجاه باب إحدى الغرف لتبحث عنه فيها، وقبل أن تفتح الباب وجدته يفتح ويخرج منه أخوها عادل..عادل حشيشة..كان يقترب منها في بطء وقد مدّ يديه نحوها وفي عينيه غضبٌ مخيف وهي تتراجع للخلف..تعثرت في جلبابها ووقعت أرضًا ثم نهضت واتجهت لغرفة أخرى تختبئ بها من عادل الذي خرجَ مِن قبره لينتقم منها، وقبل أن تفتح باب الغرفة الأخرى وجدته أيضًا يُفتح ويخرج منه غازي وهو يُقْبِل نحوها بنفس البطء وذراعاه مفرودتان نحو عنقها، وتراجعت مرة أخرى في رعبٍ وتعثرت ونهضت لتفاجأ بخطوات بطيئة خلفها..تنظر وتتسع عيناها في هلع..جميع الموتى قد استيقظوا من قبورهم..ناصر وغازي وعادل وعزمي وهمام ومعتز وأخوه.نعم.. نعم جميعهم أتوا لينتقموا منها..

أخذت أنفاسها تتلاحق في سرعةٍ، و صدرها يعلو ويهبط في رعبٍ وهلعٍ، وكاد قلبها يتوقف عن النبض كلما اتجهت لباب تهرب منه فتجد أحدهم قد أغلقه عليها، ومن أفواههم جميعًا وفي صوت واحد انطلقت ضحكات شيطانية رهيبة، وقد تجمعوا حولها في حلقة وأخذوا يُضيِّقون الحلقة حولها رويدًا رويدًا وهي تحاول مرات ومرات أن تصرخ، ولكن صوتها أبى أن يُطاوِعَها والتصق بسقف حلقها، وأخذت تتراجع

وتتراجع خشية أن يمسها أحدُهم..وأحست ببعض من الهواء البارد يلفح ظهرها من نافذة البيت المفتوحة..ودون أن تدري كيف فعلتها وجدت نفسها تلتصق بالنافذة وتدفع جسدها خارج البيت..ولم تصدق وهي تتطلع لأضواء السيارات التي تظهر على الطريق من بعيد أنها نجت من انتقامهم..

انتقام الموتى..وأمسكت بطرف ثوبها الذي تتعثر فيه، وانطلقت على الطريق، وصرخاتها تنطلق في تتابُعٍ وقد طاوعها لسانها..وظلت تجري وتجري حتي توقفتْ أمامها تلك العربة..عربة من عربات الشرطة التي كانت تتفقد الطريق..نزل منها الضابط الذي أخذ يتطلع إليها وإلى ملابسها الممزقة وشعرها المتهدل وهي تردد في همهمات غريبة وكأنها فَقَدَتْ عقلها وأصابعها تشير ناحية البيت الذي غادرته منذ لحظات :

– لا.. أنا لم أفعل شيئًا.. هم دفنوهم في السرداب.. هربت من النافذة.. يريدون الانتقام مني.. أعطيته أموالي.. خانني.. هم هناك خلف النافذة خرجوا من السرداب...

تطلع إليها الضابط في إشفاقٍ، ثم أخذها من يدها واتجه بها بصحبة عساكره إلى البيت الذي كانت تشير إليه..ولم تمر نصف الساعة حتى كان الضابط يرفع هاتفه ويتصل برئيسه قائلًا:

– لن تصدق يا سيدي ماذا وجدت..لقد عرفتُ حَلَّ اللغز الذي حيرنا شهورًا طويلة..نعم.. نعم.. عثرنا على الأشخاص.. عفوا سيدي

أقصد عثرنا على جثثهم.. لا يوجد أحياء غير امرأة من الواضح أنها فَقَدَتْ عقلها..

أخذت سامية تراقبهم وهم يستخرجون الجثث بعد حضور النيابة العامة التي أمرت بضبط كل من كمال وصلاح ورءوف وإحضارهم..وقبل أن يغادر أعضاء النيابة ورجال الشرطة أماكنهم جاءتهم مكالمة قصيرة جعلتهم يتركون البيت والجثث وكل شيء ليعودوا من حيث أتوا على وجه السرعة!

نعم.. فقد كان محتوى المكالمة على الرغم من قصرها يحوي أمرًا جللًا لم تشهده البلاد مِن قبل!

***

(٤٦)

الحشود تتجه للميدان من كل مكان، وقد امتلأ الميدان عن آخره بنوعيات البشر كافةً، وقد قام الشباب بتقسيم أنفسهم لمجموعات مهمتها تأمين الميدان، ومجموعات أخرى تقوم على تفتيش مَن يريدون الدخول، وقد أقاموا خيامًا متلاصقة ليتناوبوا الراحة فيها، وسط تلك الحشود كان صلاح يهتف بزميليه وقد اتخذوا خيمة ضمت ثلاثتهم:

- هل تعتقدون أن هذا النظام سيرحل؟

ردَّ كمال وهو يتابع الحشود الغفيرة من حوله:

- ليس أمامه خيار آخر... حتمًا سيرحل.

هتف رءوف قائلًا:

- ولكن خطاب الرئيس الأخير ترك أثرًا كبيرًا في الناس... لقد أبكى المصريين جميعًا و..

قاطعه كمال قائلًا بسخرية:

- هل هؤلاء المصريون الذين أبكاهم خطاب الرئيس؟!انظر للميدان فلا موضع فيه لقدم! نعم.. هؤلاء لو تأثروا ما نزلوا بكل تلك الحشود ثم..ثم إنني أظنُّ أنها مُراوغة من النظام... فهل يُعقل أن الرئيس سيترك الحكم بعد ستة أشهر؟!

ردَّ رءوف قائلًا وأصابعه تتخلَّل شعره في ألمٍ وتوتر:

- كم أتمنَّى أن تنجح هذه الثورة وأن نفعل شيئًا لهذا البلد نُكفِّر به عما فعلناه! و....

- "مستحيل".

كلمة اعتراضية خرجت من فم صلاح وهو يتطلع لنقطة ما وسط الحشود الهائلة، فتطلع إليه صديقاه في ذهولٍ، وقبل أن يسألاه تَرَكَهما وشقَّ طريقه وسط الجموع، وسرعان ما اختفى من أمام أعينهما..

أما صلاح فأخذ يشق طريقه وراح يزيح الجموع من أمامه ليبلغ هدفه و...

- "عفاف"

التفتت عفاف أخته وهي تحمل طفلًا صغيرًا بين ذراعيها ولم تصدق نفسها فهتفت باكية وهي تلقي جسدها بين ذراعيه:

- أخي صلاح... كم أوحشتني! كنتُ أتخيل أنني لن أراكَ ثانية.

ربّت على كتفها قائلًا:

- أخبريني.. عن أحوالك وماذا حدث لكِ؟

ابتسمت قائلة وهي تُشيرُ إلى الطفل الصغير:

- هل رأيتَ صلاح الصغير؟!

تناول الطفل من بين ذراعيها وهتف في فرحة:

- هل هذا هو..؟

قاطعته قائلة وهي تُشير إلى رجل ملتحٍ يقف بجوارها ولم ينتبه صلاح لوجوده وسط فرحته بلقاء أخته:

- نعم هو.. وهذا هو الشيخ مرتضى زوجي.

سلّم عليه صلاح ثم تطلع إلى أخته في تساؤل دون أن تتفوه شفتاه بحرف، فقالت أخته مبتسمة وهي تربت على كتف زوجها:

- تكلم يا صلاح.. ولا تخشَ شيئًا... الشيخ مرتضى زوجي عَلِمَ بالظروف التي تعرضتُ لها ووافق على أن يتزوجني وينسِبَ الطفلَ إليه.

تطلع صلاح للشيخ مرتضى شاكرًا، فربت عليه الأخير قائلًا والابتسامة تعلو وجهه:

- لا تندهش يا أخ صلاح.. لقد قال الله تعالى في كتابه الكريم: "ورحمتي وسعت كل شيء" وسبحانه وتعالى غفور رحيم ثم..ثم إن الله – سبحانه – أرسل لي صلاح الصغير بعد أن حرمني نعمة الإنجاب.

ربت صلاح على كتفه وقال:

- لا أدري كيف أشكرك يا شيخ مرتضى.. أكثر الله من أمثالك.

ابتسم مرتضى قائلًا وهو يتلفتُ حوله:

- مِن تصاريف القدر أننا قابلناكَ اليوم لأترك معك أختك وابننا؛ فلا بد أن أذهب للإخوة الآن؛ فنحن نستعدُّ لأمرٍ مهمٍّ.

وقبل أن يرد عليه صلاح كان الشيخ مرتضى قد اختفى من أمامهما وذاب وسط الحشود الهائلة، التفت صلاح لأخته وقال لها:

- ماذا يقصد بالأمر المهم؟ ومَن هؤلاء الإخوة؟

ابتسمت عفاف قائلة وهي تضمُّ ابنها الصغير لصدرها:

- الشيخ مرتضى يا صلاح أحد أبرزالأعضاء بجماعة الإخوان المسلمين وقد حشدوا حشودهم من الرجال والنساء اليوم لأنهم يتوقعون حدوثَ أمرٍ جَللٍ.

تطلع إليها وقد ظهرت علامات القلق على وجهه بعد كلام أخته فاتسعت ابتسامتها قائلة:

- لا تقلق يا أخي علينا.. إن الشيخ مرتضى يؤكد أن هذا النظام سيرحل بلا عودة، وأن الزمن القادم هو زمانهم و...

فجأة..

انقلب حال الميدان وساده الاضطراب، وأخذت الجموع تتدافَعُ بلا هدفٍ وقد هاجَمَ الميدان مجموعةٌ تمتطي الجمال والجياد، وفي أيديهم

عصي غليظة راحوا يدوسون مَـن بالميـدان بجمالهـم وجيـادهم، أحـاط صلاح أخته بذراعيه في فزعٍ، ولكن أحد الجمال شَقَّ طريقه من وسطهم وفرّق بينهما والعصا الغليظة تضرب ذات اليمين وذات اليـسار..هـوى صلاح أرضًا والدماء تسيل مـن رأسـه بغـزارة في حـين كانـت عفـاف تحتضن ابنها الذي يصرخ في فزعٍ بأحد الأركان..

الـصراخ يمـلأ أركـان الميـدان..الـدماء الطـاهرة تـسيل عـلى أرضه..مَلَكُ الموت يرفرف بجناحيه فوق الميـدان..يـصرخ كـمال وهـو يحاول يائسًا أن ينجو بنفسه:

- بهذا يكون هذا النظام قد فَقَدَ فرصته الأخيرة.

يردُّ عليه رءوف وهو يتعثر في الأجـساد والـدماء التـي تمـلأ أرض الميدان:

- قلتُ لكَ إنه لن يتنازل بسهولة.. شهوة الحكم تسيطر عليه ولـو على أشلاء هذا الشعب.

فجأة تلفَّت رءوف حوله فوجد أنـه يُحـدِّثُ نفـسه ولا أثـر لكـمال حوله وسط تدافُع الجموع الـذي تزايـد وتزايـد ومَـن يركبـون الجـمال والجياد يحاولون الفرار بأنفسهم من الناحية الأخرى من الميدان بعـد أن أعاد شباب الميدان تنظيم أنفسهم من جديد بعد أن تخلصوا من المفاجأة وراحوا يهاجمون المعتدين ويبادلونهم قتالًا بقتال..

استعاد الميدان هدوءه مرة أخرى بعد فرار بعض من المعتدين، وقيام الثوار بالقبض على البعض الآخر وربطه بالحبال.. الغضب يجتاح الوجوه، وقد آمن كل مَن بالميدان أن النظام بما حدث اليوم وقَتْله للثوار الأبرياء قد فَقَدَ فرصته الأخيرة ولا بد حتمًا من رحيله..

شباب الميدان يُنظِّمون أنفسهم في مظاهرة كبيرة لخارج الميدان..إلى قصر العروبة..

وجميعهم يهتف بأعماقه

- لا بلد أن يرحل هذا النظام.. لا بد.

تبدأ المسيرة في التحرُّك وحشود كبيرة قد رفعت صور فاتن رشاد والسيد حبيب وهم في طريقهم لوضع النهاية لذلك النظام..صرخات الحشود تهزُّ أرجاء الميدان وسماء القاهرة:

- فليرحل النظام... فليرحل النظام..

عفاف تتحرك بطفلها والرعب يجتاح ملامحها..الصغير صراخه يبلغ عنان السماء، تضمُّه لجسدها أكثر وأكثر وهي تبحث بعينيها الدامعتين عن أخيها صلاح أو عن زوجها الشيخ مرتضى الذي اختفى ولا أثر له..تتعثر في جسدين قد فارقا الحياة..صرختْ مُلتاعةً تُغادر حنجرتها حين رأت وجهيهما..تصرخ بألمٍ وهي تهزُّ الجسدين بلا فائدة:

- مستحيل.. كمال ورءوف.

في اللحظة نفسها وفي ركن آخر من الميدان كانت دماء صلاح تسيل بغزارة من جرح رأسه، وراح يتطلع بذهول – قبل أن تفارقه روحه إلى بارئها – إلى الشيخ مرتضى الذي جمع حوله مَن تبقَّى بالميدان وراح يهتف بهم وقد اعتلى منصةً عالية:

– إخواني.. لا تدعوا الخوف يتسرب لقلوبكم.. كلها لحظات ويرحل هذا النظام إلى غير رجعة..لقد فعلنا كل شيء من أجلكم..ضحينا بأموالنا وأولادنا ودمائنا..كل هذ مِن أجل أن تعيشوا حياةً كريمة..بلا ظلم ولا إذلال كما أمرنا القرآن الكريم ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم..

في اللحظة نفسها أصوات الجموع الحاشدة تتردَّد مِن بعيد وتهزُّ أرجاء الميدان..وكلمات الصحفي الشاب الشهيد حاتم منير تتردد في جنبات الميدان..

عود كبريت لكلِّ مَن سُلِبَ حقه..

عود كبريت لكلِّ مَن باعَ كُليته أو كبده أو جسده..

عود كبريت لكلِّ مَن وقف في طابور التعيين ولم يُصِبْه الدور..

عود كبريت لكلِّ مَن وقف في طابور العيش فلقي مصرعه..

عود كبريت لكلِّ مَن وقف في طابور أنابيب البوتاجاز فمات قبل أن يحملها..

عود كبريت لكلِّ مَن ترمَّلت فلم تجد ما يُعينها على حياة الموتى سوى المذَّلة والهوان..

عود كبريت لكلِّ مَن انتظرت ابن الحلال فلم يأتِها إلا الوهن في عينيها والشيب في شعرها والانحناء في ظهرها..

عود كبريت لكلِّ طفل مِن أطفال الشوارع لم يجد مأكلًا إلا ما خلَّفته القِططُ والكلاب من القمامة..

عود كبريت لكلِّ فتاة أُجبِرت على التعهُّر لتكسب قوت يومها وتجد ما يستر أبناءها وأخواتها..

عود كبريت لكلِّ شابٍّ انتظر فتاة الأحلام فلم يَرَها حتى في الأحلام..

عود كبريت لكلِّ من جَدَّ واجتهد وجاء ابنٌ لكبير فسرقَ اجتهاده...

تمت بحمد الله

السبت ٢٠١٧/٦/١٨

الساعة الحادية عشرة ليلًا